"الصومال" بلاد البربر في شرق أفريقيا في مصنفات الجغرافيين والرَّحالة المسلمين في الفترة من القرن الثالث إلى الثامن الهجري (التاسع إلى الرابع عشر الميلادي).

د/ محمد خليفة ركابي حمد الله(*).

الملخص:

تكشف هذه الدراسة عن جزء أصيل من التاريخ الإسلامي في شرق أفريقيا، وتحديدًا في منطقة القرن الأفريقي من أرض الصومال الحالية، والتي عُرفت عبر العصور التاريخية باسم بلاد (البربر). ورغم تعدد الأماكن التي شاركتها نفس الاسم، إلا إن هذا الاسم كثيرًا ما تكرر ذكره عند وصف المناطق الصومالية في مصنفات الجغرافيين والرَّحالة المسلمين، وذلك منذ بداية تدوينها في مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

ولا يعني هذا أن اسم البربر الذي عُرفت به بلاد الصومال ظهر في ذاك العصر؛ فالثابت من التراث التاريخي والجغرافي والأدبي واللغوي للحضارات القديمة التي سبقت الإسلام، يؤكد أن الأراضي الصومالية اشتهرت بهذا الاسم منذ القرن الأول الميلادي، وقد شاع تداوله حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ليحل بعده اسم بلاد الزيلع أو الزيالعة إلى ظهور الاسم الحالي (الصومال) في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

وبالتالي، فإن تاريخ الصومال لم يكن مجهولاً في العصور الإسلامية، بل كان مهملاً، والمعلوم أن وصف البلاد ومواضعها، مظانه كتب الجغرافيا والبلدان ونحوها. وانطلاقًا من هذا اليقين، فسوف يسلط البحث الضوء على كتابات الجغرافيين وروايات الرَّحالة في العصور الإسلامية عن تلك المناطق الصومالية؛ للوقوف على المسميات التاريخية بمعلومات جغرافية توضيح الصورة الحقيقية التي كانت عليها هذه البلاد.

(*) مدرس التاريخ الإسلامي بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية ودول حوض النيل – جامعة أسوان.

"Somalia" the country of Berbers in East Africa in the Compilations of Muslim geographers and travelers during the period from the third century to the eighth century HA" (ninth to fourteenth century AD).

Dr: Mohamed Khalifa Rekaby Hamed allah(*).

Abstract:

This study reveals an integral part of Islamic history in East Africa, specifically in the Horn of Africa region of present–day Somalia, which has been known throughout historical times as the country (the Berbers). Despite the multiplicity of places that I shared the same name, it is frequently mentioned when describing the Somali regions in the works of Muslim geographers and travelers, since the beginning of their codification at the beginning of the third century AH (ninth century AD).

This does not mean that the name of the Berbers, known by the countries of Somalia, appeared at that time. The constant of the historical, geographical, literary and linguistic heritage of the ancient civilizations that preceded Islam confirms that Somali lands were famous for it since the first century AD, Until the eighth century AH (fourteenth century AD),To be known later as the country of Zila or Zela'a Consequently, and it was circulated until the emergence of the current name (Somalia) in the ninth century AH (fifteenth century AD).

The history of Somalia was not unknown in Islamic times. Rather, it was neglected. It is known that the description of the country and its locations, In the thinking of geography books and countries and the like. On the basis of this certainty, the research will shed light on the writings of geographers and traveler novels in Islamic times about these Somali regions. And To know the names, Through a historical study with geographical information to clarify the true image of this country.

(*) Dr. of Islamic history at the African Research and Studies Institute and the Nile Basin countries – Aswan University.

إن البحث والدراسة في البلدان وتاريخها من الدراسات الحساسة والشائكة؛ لكونها تبحث في مدعاة فخر الشعوب ومصدر عزها، وبما إن البلاد لاتزال قائمة تتحرك بحركة الحاضر وتحمل رائحة الماضي، ويفتخر أبناؤها بتاريخها وأمجادها.... تبرز إثارة البحث وحساسيته. فقد قضت إرادة الله وحكمته بتعلق قلوب العباد بأوطانهم، وهذا الحب العميق أشار إليه القرآن في قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ)[١]، فقد اقترن حرص الناس بالأوطان إلى الحرص منهم بالأنفس. وهذا الأمر طبيعي ثابت بالفطرة لتتكامل المعيشة الدنيوية، وإلا لِمَ عمرت أكثر أجزاء المعمورة؟. فقد خالف الله بين طبائع الناس، ولولا اختلاف طبائعهم وعللهم لما اختاروا من الأسماء إلا أحسنها، ومن البلاد إلا أغذاها، ومن الأمصار إلا أوسطها...، ولتقاتلوا على الأحسن منها وخلوا الحسن وما دونه،... وقد قيل في الأمثال:" عمر الله البلدان بحب الأوطان"[٢].

وبما أن حب الوطن فطرة لا إرادية للإنسان، فإن ذلك كثيرًا ما يؤدي إلى تفضيلها عن غيرها، وركوب الصعب والذلول لعرض تميزها، ووضع الأحاديث والأخبار الأسطورية لها. لهذا علينا ألا نسلم بكل ما ورد من أخبار البلدان وفضائلها؛ فإن ظهور العصبيات الدينية والسياسية والقومية أدى إلى وضع الكثير من المتعصبين أحاديثًا وأقوالاً يرفعون فيها قدر الموضوع له، وقد أخذت البلدان حظًا من هذا، تارة في فضل مقامها، وتارة أخرى في فضل من زارها أو توفي فيها ونحو ذلك، مما أدى إلى اعتقاد الفضل في أماكن لم يرد فيها فضل[٣]. والصحيح في هذا أن الإقامة في كل موضع تكون الأسباب فيه لطاعة لله ورسوله، وفعل الحسنات والخير...، أفضل من الإقامة في موضع يكون حاله فيه دون ذلك في طاعة الله ورسوله، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم"[٤].

لذلك يجب أن نتوخى الحذر عند التعامل مع كتب البلدان والتواريخ؛ حيث توسع الكثير من المؤرخين في نقل الأحاديث الباطلة عن فضل البلدان ولا سيما بلدانهم، فقد تساهلوا في

---

(١) سورة النساء: آية ٦٦.

(٢) الهمذاني: البلدان، تحقيق يوسف الهادي، ط١، بيروت، عالم الكتب، عام ١٩٩٦م، ص٤٨٧.

(٣) أحمد سليمان أيوب: السمو إلى العنان بذكر صحيح فضائل البلدان، تقديم محمد صفوت نور الدين، القاهرة، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، عام ٢٠٠٢م، ص١٦.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، اعتنى بها وأخرج أحديثه أحمد الجزار وأنور الباز، ط٣، المنصورة، دار الوفاء، عام٢٠٠٥م، ج٢٧، رقم الفتوى٣٩، ص٢٦.

ذلك غاية التساهل دون انتباه، وقد وقع الكثيرون منهم في ذلك رغم كونهم أهل التخصص. فالحذر من النقل والاعتماد دون تحقيق، فإن الكذب في هذا قد كثر وتجاوز الحد؛ وسببه ما جُبلت عليه قلوب العباد من حب الأوطان والشغف بالمنشأ[١]. لذلك نؤكد أن من له حظ في مطالعة كتب البلدان والبحث فيها، وخاصة ما يكتبه أبناء البلاد عن مهدهم، بحاجة إلى التحقيق وقسط من العدل، فلا يرفع من قدر بلد ولا يحط منها.

ورغم التغني بأخبار البلدان ووصف محاسنها، إلا إن بلاد شرق أفريقيا عمومًا وبلاد الصومال بشكل خاص لم تنل حظا من هذا؛ وربما كان ذلك مرجعه اتجاه معظم الكتَّاب إلى الكتابة في تاريخ المشرق الإسلامي وبلادها وانغماسهم فيه، يحركهم في ذلك المصالح، أو تعبير عن نزعات عنصرية وقبلية تبرز في كتاباتهم التاريخية، والتي تناولت موضوعات قتلت بحثًا، وكأن العالم الإسلامي حُصر في منطقة آسيا فقط[٢]. ولعل كان مرجعه أيضًا عدم اكتراث شخصيات محلية من أبناء الوطن برصد وتدوين الأحداث التي مرت بها بلادهم إلا في عصور متأخرة. مما جعل قلَّة الكتابة عن هذه البلاد وعدم تقديم الدعم الثقافي لها، أن غفل العالم الإسلامي عن بعض أطرافه، والتي أدت في النهاية الأمر أن يفقد بعضًا منها.

لذلك كان من دواعي اهتمامي لاختيار موضوع هذا البحث؛ هو محاولة إيجاد تقارب إسلامي عربي إفريقي في ظل عالم يتميز بأنه عالم التكتلات السياسية والاقتصادية. وما أحوجنا نحن المسلمين العرب إلى مثل هذه الموضوعات التي تساعد على الوحدة. ومن هنا تبرز أهمية إحياء التراث الإسلامي العربي الذي يوظف الماضي للانطلاق تجاه الحاضر.

ولا نستطيع القول أن تاريخ المناطق الصومالية في فترة العصور الإسلامية كان مجهولاً، ولكن نقول كان مهملاً، فالمعلوم أن المعلومات عن تطور البلدان، وطبيعة أماكنها البرية والبحرية، ووصف مدنها وقرها، مظانه كتب الجغرافيا، ومعاجم البلدان، وتاريخ المدن ونحوها. وانطلاقًا من هذا اليقين فسوف نسلط الضوء على كتابات الجغرافيين وروايات الرَّحالة لتلك المنطقة في الفترة من القرن

---

(١) الشوكاني: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، تحقيق عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، عام١٩٩٥م، باب فضائل الأمكنة والأزمنة، ص٤٣٦–٤٣٧.

(٢) المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مع دراسة عن الإسلام في شرق أفريقيا والحبشة، تحقيق عبد النعيم ضيفي عثمان، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، عام ٢٠٠٦م، مقدمة المحقق، ص٤.

(٣– ٨هـ/٩–١٤م). لتقديم دراسة تاريخية بمعلومات جغرافية نستطيع من خلالها وضع صورة لحدود تلك البلاد خلال هذه الفترة، وماهي المناطق التي كان يسكنها الصوماليون.

وللوصول لنتائج حقيقية في هذا البحث، كان لابد أولاً من معرفة المسميات التاريخية لبلاد الصومال والوقوف عليها عبر العصور، فالثابت حاليًا أن اسم (الصومال) الذي يذكر عند وصف أرض الصومال لم يتم استعماله إلا في عصور متأخرة؛ ويظن البعض أن أول إشارة ظهرت له كانت ضمن كلمات أنشودة حبشية تخلد انتصارات النجاشي ملك الحبشة على إحدى الممالك الإسلامية في الصومال في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)[١]، غير أن الاسم ورد أكثر وضوحًا في عدة مواضع من كتاب (تحفة الزمان أو فتوح الحبشة)، للمؤرخ اليمني المعروف بـ عرب فقيه (ت: بعد٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م)، الذي عاصر أحداث الحروب الإسلامية المسيحية في المنطقة خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)[٢]. وعقب ذلك تردد اسم الصومال كثيرًا لينتشر بعدها حتى بات الآن اسم لدولة عربية إسلامية، كانت أرضها شاهدة في العصور الوسطى على حضارة المسلمين في الساحل الشرقي لإفريقيا[٣].

---

(١) إنريكو تشيرولي (مستشرق إيطالي): الصومال، كتابات مختلفة نشرت وغير منشورة، ثلاثة مجلدات، روما، الإدارة الائتمانية الإيطالية من الصومال، عام ١٩٥٧– ١٩٦٤م،؛

– Cerulli, Enrico: Somalia, Scritti vari editi ed inediti,3vol, Amministrazione Fiduciaria Italiana di Somalia, 1957–1964 Roma, vol 1, P.111.

(٢) عرب فقيه (شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني): مخطوطة تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، المكتبة المركزية بجامعة الرياض بالسعودية، قسم المخطوطات، المسجلة برقم ٣٥٠.

(٣) الصومال: دولة عربية تقع في شرق قارة إفريقية على منطقة ما تعرف باسم القرن الإفريقي. يحدها خليج عدن والمحيط الهندي من الشرق، وإثيوبيا من الغرب، وجيبوتي من الشمال الغربي، كينيا من الجنوب الغربي. وتقع هذه البلاد ما بين درجتين جنوبًا و١٣ درجة شمالاً من خط الاستواء، وتمتد شرقًا من خط طول ٥١ درجة شرقًا، حتى تصل خط طول ٤١درجة شرقًا. وتحتل بلاد الصومال حاليا مساحة من الأرض تصل إلى حوالي ٢٤٦ ألف ميل مربع (٦٧٨/٥٠٠ كم٢ أو ما يعادل ٦٣/٨ هكتار مربع)، وتأخذ أرضه شكل بروز داخل مياه المحيط الهندي على شكل رقم (7) بالإنجليزية، أو عبارة عن مثلث بزاوية على صورة قرن في بطن مياه المحيط الهندي. وتملك أطول حدود بحرية في قارة أفريقيا، حيث يبلغ طول الجزء الخاص بخليج عدن ٦٥٠ ميلاً، أما الساحل الذي يقع على المحيط الهندي فهو ١٣٠٠ميلاً، تتسم تضاريسها بالتنوع بين الهضاب والسهول والمرتفعات، مناخها صحراوي حار على مدار السنة مع بعض الرياح الموسمية والأمطار غير=

وقد اختلف الباحثون حول معنى كلمة الصومال وتحديد مصدرها، وطرحوا عدة آراء لتفسيرها، والواضح أن هذه الآراء اعتمدت في جملتها على تفسيرات لغوية وتأويلات لفظية، والتي غالبًا ما يلجأ إليها الناس لمعرفة ما أُشكل عليهم من معاني الكلمات(١). والواضح أن هذه التفسيرات لم تستند إلى أدلة تاريخية يمكن الاعتماد عليها، ولا ترتكز على أسس علمية منطقية يمكن قبولها، وفي الغالب مصدرها الروايات الشفهية المتداولة وسط الصوماليين، أو خيال الباحثين الذين حاولوا تحديد المعنى الأصلي لهذه الكلمة.

وبالعودة للبحث عن كلمة الصومال في العصور الإسلامية الأولى، لم نجد لها أيَّ ذكر، ولكن وجدنا وصف هذه البلاد في تلك العصور تحت مسمى مغاير لها وهو(البربر)،

=المنتظمة.(أحمد صوار: الصومال الكبير، كتب سياسية الكتاب رقم١٢١، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ط (د. ت)، ص٥؛ على أحمد هارون: أسس الجغرافية السياسية، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي، عام ١٩٩٨م، ص٢٤٨؛ فيليب رقلة: الجغرافية السياسية لأفريقية، مع دراسة شاملة للدول الأفريقية سياسيًّا واقتصاديًّا وطبيعيًّا، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، عام ١٩٦٦م، ص٣٠١-٣٠٢؛ كتاب المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية، إعداد معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، المنظومة العربية للتربية والنشر، عام ١٩٨٢م، مقال السعيد إبراهيم البدوي: الإنتاج الزراعي في الصومال، ص٤٠٣، ومقال شوقي عطا الله الجمل: تاريخ الصومال في العصر الحديث ١٩٦٩-١٩٨٦م، ص٩٣).

(١) لقد تعددت هذه الآراء واختلفت التفسيرات بل وتعددت حول اسم الصومال فمنها ما يفترض أن لفظة (صومال) محرفة من كلمة (سوماج) أو(سوماهة) الأثيوبية وهي تعني بالحبشية غير المتحضرين، وهي تسمية أطلقها الأحباش على الصوماليين إبان الحروب الدينية. ويرى رأي آخر أن الكلمة مأخوذة من كلمة (سمال) العربية، والتي كان يلقب بها زعيم قبلي صومالي سمل عين أخيه. في حين يرى آخر أن كلمة (سمال) صومالية تتركب من مقطعين وهما: (سما) أو(سمى) وتعني يد الرمح، و(ل) وتعني: ذو أو صاحب، وبجمع المقطعين، تكون الكلمة بالصومالية (ذو الرمح) أو(صاحب الرمح). وآخر يرى أن الكلمة مأخوذة من اسم لجزيرة قديمة كانت في منطقة شمال شرق الصومال تسمى (سمالي). وادعى رأي آخر أن كلمة الصومال مأخوذة من الكلمة العربية (ذو مال) التي كان يلقب بها أحد الصوماليين الأثرياء الذي عاش في المنطقة، ومع مرور الزمن، تم تحريف كلمة (ذو مال) إلى (صومال)، لعدم استخدام الصوماليين حرف (ذ). بينما يرى آخرون أنها مأخوذة من وادي في اليمن هاجر منه الجد الأكبر للصوماليين الذي كان يسمى (صومل). ويرى أخرون أيضًا أن لفظة (سومال) مأخوذة من كلمة صومالية مكونة من مقطعين متلازمين، هما (سو) من الحروف المساندة للفعل وخاصة الأمر، و(مال) وهو الفعل ويعني عندهم (اذهب أو احلب) الناقة وغيرها(زين العابدين عبدالحميد السراج: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدن الساحل الصومالي فيما بين القرنين٦-٨هـ/١٢-١٤م، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، قسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة، عام ١٩٨٦م، ص٤-١٠).

رغم أن المعلومات المتوفرة حول هذه الكلمة من الناحية الجغرافية، تبين أنها انتشرت في أكثر من موضع، فنجد هذا المسمى عُرفت به أماكن في جنوب الجزيرة العربية، وما جاورها من المناطق الإفريقية من الصومال حتى مصر وبلاد الشام. فقد كان يُطلق هذا الاسم سابقاً على أمّة كبيرة وقبائل كثيرة في بلاد المغرب، ويُقصد بهم سكان شمال أفريقيا الأصليين المعروفين اليوم باسم (الأمازيغ). وكذلك أُطلق على أمة أخرى في قبالة بلاد اليمن بين أرض الحبشة والزنج، وهؤلاء بلادهم الواقعة في الصومال حاليًا. وأُطلق أيضًا على سوق كبير بوسط الفسطاط بمصر، حين نزلها قوم من بربر العرب فسُمّي بهم(١). كما أيضًا أُطلق الاسم على القبيلة الحاكمة لإقليم (جَنَاوة)، وهي المنطقة التي كانت غرب الصحراء والتي عُرفت بالسودان الغربي أو إمبراطورية غانا(٢).

وكذلك أيضًا أُطلق على إحدى نواحي النيل السوداني، في الإقليم القبلي التابع لولايات شمال السودان، والذي يشتهر بكثرة شجرة المُقل (الدُّوم)(٣)، وقاعدته أيضًا تسمى بربر، في المنطقة التي تقطنها قبيلة (الميرفات)، على ضفتي النيل في المساحة الممتدة من الشلال الخامس شمالاً إلى بلاد عطبرة جنوبًا(٤). وقيل أيضًا أن هذا الاسم لجبل في أعالي نجران باليمن، و أيضًا اسم لجبل آخر في أواسط جبل الشيخ في سلسلة جبال تدمر بسوريا(٥).

---

(١) ياقوت الحموي: المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، ط٢، بيروت، عالم الكتب، عام١٩٨٦م، ص٤١–٤٢؛ بامخرمة الحميري: النّسبة إلى المواضع والبلدان، ط١، أبوظبي، مركز الوثائق والبحوث، عام٢٠٠٤م، ص ٩٩.

(٢) أبو عبد الله الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط (د.ت)، ص١٢٥–١٢٦.

(٣) عبدالحكيم عفيفي: موسوعة ١٠٠٠مدينة إسلامية، ط١، بيروت، أوراق شرقية للطباعة، عام٢٠٠٠م، ص١٠٦.

(٤) عون الشريف قاسم: موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن، ط١، الخرطوم السودان، نشر شركة آفروقراف، عام١٩٩٦م، ج٦، ص٢٤٤١؛ عبد العزيز بن عبد الله: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، الرباط، المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عام١٩٧٦م، ص٥٥.

(٥) محمد علي مادون: عروبة البربر الحقيقة المغمورة، ط١، دمشق، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، عام١٩٩٢م، ص٨٥.

ورغم تعدد الأماكن التي عُرفت باسم (البربر)، إلا إنه شاع استخدامه عند وصف المناطق الصومالية، فكثيرًا ما تكرر على ألسنة الجغرافيين والرّحالة والمؤرخين المتقدمين على الصعيدين الإسلامي والعربي، فمنذ المحاولات الأولى لظهور الجغرافيا الأدبية في مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، والتي تمثلت في صورة وصف المسافات بين البلدان، نجد في أقدم مصادرها وهو كتاب "المسالك والممالك" لابن خُرْدَاذْبَهْ (ت:٢٨٠هـ/٨٩٣م)، وربما أول من ذكرها بهذا المسمى خلال حديثه عن وضع البحار، فيشير إلى المناطق الحالية لبلاد الصومال بجملة "ناحية البربر"(١).

ولكن مع استمرار الكتابة الجغرافية وتطورها في عصور لاحقة لابن خُرْدَاذْبُهْ، والتصدي لدراسة مشاهد الأرض الطبيعية، نجد أنها قدمت وصفًا أكثر وضوحًا لبلاد الصومال ولكن بنفس المسمى، وربما طرأ عليه بعض التغيير البسيط، فقد كتبه البعض مضبوطًا بفتح الباء الموحدة وراء مهملة ساكنة، ثم باء ثانية مفتوحة وراء أخرى مهملة (بَرْبَر)(٢)، بينما نجد البعض الآخر يكتبه كذلك مع فتح الراء الأخيرة (بَرْبَرَ)(٣)، وأحيانًا نجد الكلمة مضافًا إليها ألف مقصورة في آخرها (بَرْبَرَا)(٤)،

(١) ابن خُرْدَاذْبه: المسالك والممالك، ليدن، هولندا، دار بريل للنشر، عام ١٨٨٩م، ص٢٣٠.

(٢) ابن رُسته: الأعلاق النفيسة، ليدن، دار بريل للنشر، عام١٨٩٢م، ص٨٤؛ البكري: المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، عام١٩٩٢م، ج١، ص٣٢٠؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، عام١٣٤١هـ، ص٩١؛ ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبدالمنعم العريان، ط١، بيروت، دار إحياء العلوم، عام١٩٨٧م، ج١، ص٢٦١؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، عام٢٠٠١م، ج١(المقدمة)، ص٦٠.

(٣) الهمذاني: البلدان، ص٦٣.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، عام٢٠٠٥م، ج٢، ص٥؛ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط١، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، عام١٩٧٠م، ص٨١؛ وأيضًا ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان المغرب، معهد مولاي الحسن، عام١٩٥٨م، ص١٣؛ الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، لايبزيغ المانيا، نشر أوتو ويلهيلم هراسوفيتش، عام١٩٢٣م، ص١٩؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، تحقيق رينود والبارون ماك كوكين، باريس فرنسا، دار الطباعة السلطانية، عام١٨٤٠م، ص١٥١؛ بامخرمة الحميري: النّسبة إلى المواضع والبلدان، ص٩٩.

وأحيانًا أخرى بنفس الصورة مع تغير في حرفها الأخير ليكون الألف تاء مربوطة (بَرْبَرَة)[١].

وقد رجح البعض أن اسم البربر الذي عُرفت به بلاد الصومال في العصور الوسطى، يرجع إلى النسبة لمدينة (بَربَرة) الصومالية، التي تقع شمال غرب الصومال وتضم ميناء بحري في الساحل الجنوبي من خليج عدن، والتي لا تزال يتداول اسمها على هذه الصورة إلى الآن[٢]. وهذا الطرح لا تُؤيده المصادر الجغرافية والتاريخية؛ لأن هذه البلدة نفسها لم يتم ذكرها إلا في القرن السادس الهجري(الثالث عشر الميلادي) للمرة الأولى، في حين أن مسمى البربر قد عمَّ ذكرة لوصف المناطق الصومالية عند الجغرافيين والرحالة منذ القرن الثالث الهجري(التاسع الميلادي). حتى اقترن لديهم منذ بدايته بحقيقة قاطعة عن بلاد الصومال، وهي أن هؤلاء البربر تقع بلادهم ما بين بلاد الحبشة وبلاد الزنج، في قبالة برَّ اليمن على أعالي بحر القلزم (البحر الأحمر)[٣].

ويبدو إن هذا التحديد كان حرصًا منهم للتفريق بين جيران الموطن بدقة واضحة، فكما فرقوا بين مواطن البربر والحبشة والزنج، فقد نبهوا إلى حقيقة فاصلة أهم وهي التفريق بين أجناس البربر، فهناك بربر المغرب في شمال أفريقيا، وبربر ساحل البحر الأحمر في شرق أفريقيا، وذكروهم بأنهم طائفة من السود بين بلاد الزنج وبلاد الحبش يسكنون البرِّية. كما إنهم

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، عام١٩٩٢م، ص٤٩؛ البيروني: القانون المسعودي، تحقيق وزارة معارف الحكومة العالية الهندية، ط١، حيدر آباد الدكن الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، عام١٩٥٤م، ج٢، ص٥٣٨،٥٤٨؛ الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، عام٢٠٠٢م، ج١، ص٤٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، عام١٩٧٧م، ج١، ص٣٦٩.

(٢) رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية من ظهور الإسلام إلى قدوم البرتغاليين، القاهرة ، دار النهضة العربية، عام١٩٩٩م، ص٩١.

(٣) ابن خُرْدَاذْبه: المسالك والممالك، ص٢٣٠؛ ابن رُسته: الأعلاق النفيسة، ص٨٣–٨٤؛ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص١٥؛ الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٤٧؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٦٩؛ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص٨١–٨٢؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص١٥٨:١٥٩؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص٩١؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص٧٢.

وضحوا – تحاشيًا اللبس– أصول وصفات ثم ألوان وأماكن كل منهما بكل دقة وعناية، فهؤلاء بربر شرق أفريقيا يتميزون بلونهم الشديد السواد ويسكنون الصحراء، بينما بربر شمال أفريقيا بيض الألوان كسائر أهل إقليم البحر الأبيض المتوسط(١).

وهكذا تداولت كتب الجغرافيا والرحلات اسم البربر لوصف المناطق الصومالية في العصور الوسطى وتواترته فيما بينها، ولكن هذا لا يعني أن المسمى ظهر في تلك العصور؛ فقد ظهر هذا الاسم في تاريخ سابق للعصور التي دوَّن فيها الجغرافيون والرَّحالة مؤلفاتهم. فالثابت من التراث الأدبي للعرب في العصور التي سبقت الإسلام يؤكد أن العرب عرفوا المناطق الصومالية وأطلقوا على بلادها اسم (بربرا). حيث ورد ذكرها في بعض قصائد الشعر الجاهلي قبل الإسلام في أكثر من موضع. فذكر "ابن يعقوب الهمداني"(٢) (ت:٣٣٦هـ/٩٤٧م) من قول "آل أسعد مَلكْيكرِب تُبَّع"(٣)، يرجع إلى القرن الخامس الميلادي تقريبًا، ذكرهم منازل من خرج منهم من اليمن في سائر جزيرة العرب وغيرها:

"وَمِنَّا بِأَرْضِ الغَرْبِ تَعلَّقُوا إلى بَرْبَرٍ حَتَى أَتَوْا أَرْضَ بَرْبَرِ"

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٨٤؛ البكري: المسالك والممالك، ج١، ص٣٢٠؛ ياقوت الحموي: المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، ص٤١:٤٢؛ بامخرمة الحميري: النّسبة إلى المواضع والبلدان، ص٩٩.

(٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط١، صنعاء اليمن، مكتبة الإرشاد، عام١٩٩٠م، ص٣٢٦،٣٢٥.

(٣) آل أسعد مَلكْيكرِب: هم عشيرة أسعد أبو كرب الحميري أو أبو كرب أسعد أو أسعد تبع، ويعرف في كتب التراث العربية باسم (أسعد الكامل)، أحد ملوك مملكة حمير اليمنية وأطولهم عمرًا، ويرجح أنه في الفترة من (٣٧٨–٤٣٠م)، وهو أول من أطلق على نفسه لقب ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في المرتفعات والتهائم، ويشاع أنه كان أنه اعتنق اليهودية أثناء نزوله بيثرب في طريقه إلى اليمن، لكن أهل الأخبار ذكروا أنه كان يتبع ديانة توحيدية حميرية متأثرة باليهودية متمحورة حول الإله رحمن، وقد دلت النصوص أنه كان عقيمًا وتوزع الملك من بعده على أسرته ودبَّ الخلاف بينهم، فتفرقوا في البلاد(جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، نشر جامعة بغداد، عام ١٩٩٣م، ج٢، ص٥٧٠،٥٢٦).

والواضح من هذا القول أمرين: أولهما أن أرض بربر في جهة الغرب من بلاد اليمن، وهذه الناحية هي بلاد الصومال. والأخر أن أرض هذه البلاد شهدت هجرات عربية في عصور سبقت انتشار الإسلام. ومن جملة ما يستدل به على تأكيد هجرات العرب الجنوبيين إلى بلاد الصومال في هذه العصور، هو عثور علماء الآثار على أسماء آلهة عبدها عرب الجنوب، عثر عليها في بعض الكتابات الصومالية. ووجودها في هذه الأرض هو دليل على وجود جاليات عربية جنوبية في تلك الجهات وتأثر الصوماليين بثقافة العرب(١).

وكذلك نجد ذكر هذه البلاد في قصائد أخري من الشعر الجاهلي ترجع إلى القرن الساس الميلادي، وذلك في أكثر من موضع من قصائد الشاعر العربي الملقب بـ" أُمْرُئ القَيْس الكندي"(٢)(ت:٥٤٥م)، والتي نظمها خلال حروبه مع بني أسد، ففي أحداها يصف خيل بربرا إذ خصها بقوله:

"عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَى مُعاوِدِ بَرِيدَ السُّرَى باللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا"(٣)

---

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٤٥٢.

(٢) أُمْرُؤ القَيْس: هو جندح بن حُجر بن الحارث الكندي(٤٩٧–٥٤٥ م)، هو شاعر عربي من مكانة رفيعة، بَرز في فترةِ الجاهلية، ويُعد رأس شعراء العرب، وأحد أبرزهم في التاريخ، اختلفت المصادر في تسميته، فورد باسم جندح وحندج ومليكة وعدي، وهو من قبيلة كندة. يُعرف في كتب التراث العربية بألقاب عدة، منها: المَلِكُ الضِّلِّيل وذو القروح، وكُني بأبي وهب، وأبي زيد، وأبي الحارث(أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، ط١، بيروت، دار صادر، عام٢٠٠٢م، ج٩، ص٥٩؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم الرجال والنساء في العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، بيروت، دار العلم للملايين، عام٢٠٠٢م، ج٢، ص١١).

(٣) المُبَرِّد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، القاهرة، دار الفكر العربي، عام١٩٩٧م، ج٢، ص٦١؛ ديوان أمرئ القيس، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٤، القاهرة، دار المعارف، عام١٩٦٩م، ص٦٦؛ ويعني بمقصوص الذنابي: أي محذوف الذيل وقد كانت العادة عندهم أن تحذف أذناب خيل البريد ليكون علامة لها، معاود: معتاد السير، بريد السرى: رسول الليل، والسري لا يكون إلا ليلاً، وبربر: القبيلة القائمة على خيل البريد(شرح ديوان أمرئ القيس، تحقيق حسن السندوبي، ط١، بيروت، دار إحياء العلوم، عام١٩٩٠م، ص١٠٧).

وذكر "ابن رشيق القيرواني"[١](ت:٤٥٦هـ/١٠٧٠م) أنه خص خيل بربرا بالذكر دون سواها من خيل العرب لصلابتها وقوة تحملها، وكانت تلهب أذنابها– قص ذيولها– كالبغال لتدخل مداخلها في خدمة البريد، وربما وللإعلام بأنها للملك، ولا يبعد أنه كان طلبًا للخفة في العدو، مثلما كانوا يعقدون شعر الأعراف والأذناب لخيولهم في الحرب.

وفي موضع آخر له من قصيدة أُخرى، يتفاخر بأنه كان يملك جمعًا من قوم بربرا بجانب جيوشه فيقول:

"**وَبَعْدَ أَبِي فِي حِصْنِ كِنْدةَ سَيِّدًا يَسُودُ جُمُوعًا مِنْ جِيُوشٍ وَبَرْبَرَا**"[٢]

وقد يقصد بذكرهم أنه كان يملك كثيرًا من الرقيق الذي يجلب من بربرا؛ فيذكر "المقدسي"[٣](ت:٣٨٠هـ/٩٩٠م) أن: "**من بين أجناس الرقيق الذي يُجلب إلى ميناء عدن، من جنس البربر وهو أشرهم**". غير أن "ابن سعيد"[٤](ت:٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) ذكر:" **أن رقيقهم الذي ذكره امرؤ القيس مستحسن، وقد عدموا في بلاد الإسلام بعدما أسلم أكثرهم**". ولعله يقصد بأنهم أحد القوى المحاربة بجانب جيشه، وربما ذكرهم لما اشتهروا به من القوة والبأس في الحروب، وصيد الوحوش، والبراعة في صنع السم ورميه بالنبال[٥].

وكيفما كان المعنى إلا إن المؤكد من قول امرئ القيس: بربرا، قصد بها بلاد الصومال، رغم إن الاسم كان يُطلق على أمم أخرى – كما أسلفت الإشارة إليه – والدال على ذلك نصين: أولهما "لابن سعيد المغربي"[٦] الذي قال: " **بربرا قاعدة البرابر التي ذكر امرؤ القيس خيلهم، ورقيقهم مستحسن، وقد أسلم أكثرهم فلذلك عدموا في بلاد الإسلام**..". ثم استكمل

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، بيروت، نشر دار الجيل، عام١٩٨١م، ج٢، ص٢٢٧.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص٢٦٩.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق شاكر لعيبي، ط١، أبو ظبي الإمارات، دار السويدي، عام٢٠٠٣م، ص٢٢٤.

(٤) كتاب الجغرافيا، ص٨١.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٦٩؛ ونفس المصدر، ج٣، ص١٦٤.

(٦) كتاب الجغرافيا، ص٨١؛ وأيضًا ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، ص١٣.

كلامه عن نيل مقديشو وبعض الأماكن الأخرى الواقعة في بلاد الصومال الحالية. والآخر "لابن خلدون"[١] (ت:٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) والذي قال فيه: " **وبربرا قاعدة البرابر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر الذي هم قبائل المغرب** ..".

وقد ذكرهم شاعر آخر من شعراء الجاهلية وهو "عَدِي بن زيد العِبَادِي التَّميمِي"[٢](ت:٥٩٠م) في إحدى قصائده عن بلاد اليمن بقوله:

"**يَومَ يَقولُونَ يآلَ بَرْبَر والْـ يَكْسُومَ لا يَفْلِحْنَ هَارِبُها**"[٣]

والواضح من قوله (آل بَرْبَر) يقصد به قبائل الصومال، فقد ذكر جمعهم دون ملكهم كالحبشة (يَكْسُوم)[٤]؛ وهذا يؤكد أنهم جنس دون الحبشة، فقد كانوا آنذاك قبائل شتى يجتمعون يجتمعون تحت اسم بَرْبَر، فلم يكن لهم حُكم أو سياسة كما للحبشة، ولوكان يقصد بهم

---

(١) العبر، ج١، ص٦٠.

(٢) عَدِي بن زيد العِبَادِي التَّميمِي، هو عَدِي بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب بن محروف بن عامر بن عصية بن امرئ القيس بن زيد مَناة بن تميم بن مر بن أُد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، العِبَادِي التميمي، كان شاعرًا نصرانيًّا من أهل الحيرة عاش في القرن السادس الميلادي وكان من دهاة الجاهلية، فصيحًا، يحسن العربية والفارسية، والرمي بالنشاب. هو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، الذي جعله ترجمانًا بينه وبين العرب، فسكن المدائن ولما مات كسرى وولي الحكم هرمز الرابع أعلى شأنه ووجهه رسولا إلى ملك الروم طيباريوس الثاني في القسطنطينية، فزار بلاد الشام، ثم تزوج هند بنت النعمان. وشى به أعداء له إلى النعمان الثالث بما أوغر صدره فسجنه وقتله بأن خنقه النعمان بنفسه في السجن حوالي عام ٥٨٧ م(أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج٢، ص ٦٣ وما بعدها؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، جـ٤، ص٢٢٠).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، ط١، بيروت، دار الجليل، عام١٤١١هـ، ج١، ص ١٨٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، عام١٩٩٠م، ج٢، ص١٧٩؛ ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد، دار الجمهورية للنشر، عام١٩٦٥م، ص٤٧.

(٤) يكسوم: هو يكسوم بن أبرهة الأشرم صاحب (حادثة الفيل)، حكم اليمن بعد هلاك أبيه من قِبل مملكة أكسوم أكسوم الحبشية، خلال فترة احتلال الأحباش لليمن(٥٢٥– ٥٩٩م)، وتولى الحكم في عام(٥٧٠ أو ٥٧١م)، وكان سيئ السيرة في أهل اليمن فعم أذاه سائر الناس، إلى أن هلك بعد عشرين سنة من الحكم، وقيل مكث على اليمن تسع عشرة سنة، قيل أيضًا سبع عشرة سنة، وتولى بعده أخوه مسروق بن أبرهة، وهو أخو سيف بن ذي يزن من جهة الأم (ريحانة ابنة ذي جدن)، والذي قُتل في معركة صنعاء التي دارت بين الأحباش واليمنيين بمساندة الفرس، بعدما استغاث بهم سيف بن ذي يزن، وبموته انتهى حكم الأحباش على اليمن (جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٥٠٤،٥٠٥).

الأحباش لغفل ذكرهم بذكر ملكهم. أضافة إلى ذلك أن ذِكر اسمهم جاء مقترنًا بملك الحبشة يدل على أنهم شاركوا الأحباش في غزو اليمن.

ونجد ذكرهم أيضًا في إحدى قصائد الشعر الجاهلي للشاعر اليمني "عَلْقَمَةُ ذِي جَدَن الحِمْيَرِيّ"(١)(عاش في القرن السادس أو السابع بعد الميلاد) في إحدى مراثيه لحصون حمير بقوله:

"وَلَمِيسُ كَانَتْ فِي ذُؤابَةِ نَاعِطٍ يَجْبِي إِلَيْهَا الخَرْجَ سَاكِنُ بَرْبَرِ"(٢)

وهنا الشاعر يرثي أحد الحصون القوية في عصر تبابعة – ملوك – حمير المعروف بلميس، والذي كان في ذؤابة – قمة– الجبل المعروف بناعط بصنعاء اليمن، حيث كانت تأتي إليه الضرائب من أرض بربر(الصومال) المجاورة لبلدهم، والتي كانت تحت نفوذ دولتهم في عصر الحميريين. وهذا ما أكدته مؤلفات القرن الأول الميلادي، والتي أشارت إلى أن الجزء الجنوبي من الساحل الأفريقي كان في أيدي الحميريين في ذلك الوقت(٣).

وكذلك أيضًا نجد الشاعر " مِرْدَاس بن أَبي عَامِر السُّلَمِيّ"(٤)، ذكرهم في أحد أشعاره عندما أخذت منه بنو بكر بن كلاب أبله التي غنمها في أحدى حروب الجاهلية التي عرفت

(١) عَلْقَمَةُ ذِي جَدَن الحِمْيَرِيّ (عاش في القرن السادس أو السابع بعد الميلاد) شاعر عربي من اليمن. تناولت أشعاره عن حصون اليمن وتدميرها. ومن أحفاده الصحابي الجليل علقمة بن أسلم بن مَرْثد، وكان شاعرًا ويقال لهُ: علقمة الأصغر(ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تميز الصحابة، تحيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، القاهرة، عام٢٠٠٨م، ج٨، ص١٩٣).

(٢) ابن يعقوب الهمداني: الإكليل، الكتاب الثاني في أنساب ولد الهميسع بن حمير، تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء، نشر وزارة الثقافة والسياحة اليمنية، عام٢٠٠٤م، ص٢٢٤–٢٣٠؛ نشوان ابن سعيد الحميري: منتخبات من أخبار اليمن منتقاة من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق عظيم الدين أحمد، ط١، ليدن، مطبعة بريل، عام١٩١٦م، ص٩٦.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٤٥٢.

(٤) مِرْدَاس بن أَبي عَامِر السُّلَمِيّ: هو مِرْدَاس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة السُّلَمِيّ، من بني سليم بن منصور، هو زوج الخنساء، ووالد الصحابي الجليل عباس بن مرداس المتوفي١٨هـ/٦٣٩م ، وقيل أن مرداس قتلته الجن بعد أن أحرق الوادي المشهور بالجن(ابن عبد البرِّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد علي البجاوي، ط١، بيروت، دار الجليل، عام١٩٩٢م، ج٢، ص٨١٧).

بيوم " شِعب جَبَلة"[١]، والتي وقعت أحداثها حوالي عام(٥٧٠م) وقيل عام (٥٥٣م)، بقوله:

"تَدَاعَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَيَّ كَأَنْمَا تَدَاعَتْ عَلَيَّ بِالأَحِزَّةِ بَرْبَرٌ"[٢]

وهكذا تكرر اسم البربر في التراث الأدبي للعرب منذ العصور القديمة، وهذا دليل على أن المناطق الصومالية ذاع صيتها في العصور التي سبقت الإسلام، حيث انتشرت مخرجاتها في البقاع المجاورة، وورد ذكرها في تاريخ سابق للعصور التي دوَّن فيها الجغرافيون والرَّحالة مؤلفاتهم. هذا الأمر الذي يجعلنا نعود بالبحث عن مسمى البربر في عصور تاريخية أقدم. وإلى هنا يمكن لنا أن نتساءل عن الأسباب التي أدت إلى إطلاق هذه اللفظة (البربر) ذات الأهمية التاريخية على بلاد الصومال، وما مصدرها؟. وهل لذلك علاقة بمَ لهذه الكلمة من مدلولات لغوية متنوعة؟.

فالشائع في الكتب أن مصطلح (بربر) أو(برابرة) مشتق من الكلمة اللاتينية الأصل باربارُوس (Barbarus)، التي كان يطلقها الرومان على غيرهم من شعوب حضارات الأخرى، فكانوا ينعتون بها غيرهم من الحضارات التي لاتزال في حالة من البدائية والتوحش، بصفتهم همجًا لم يرقوا بعد إلى درجة من النضج والانضباط الاجتماعي[٣].

ولكن كتب أخرى تؤكد أن أصلها إغريقي من الكلمة اليونانية باربارُوس (βάρβαρος)، وإن أصل اللفظ نابع من تهكُّم وسخرية الإغريق من ناطقي اللغات الأخرى

---

(١) يوم شِعب جَبَلة: هي حرب ضروس وقعت في الجاهلية حوالي عام (٥٧٠م) وقيل عام (٥٥٣م)، والتي اندلعت بين قبائل تميم ومن معها من الحلفاء من بنو مرة وفزارة ذبيان وبني أسد، ضد بني عامر وحلفائهم من بني بارق وعبس الذين تحصنوا في شعب بجبل عظيم يعرف بجبلة، وانتهت الحرب بانتصار حزب بني عامر(أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج١١، ص ٩٢ وما بعدها).

(٢) أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج١١، ص ١٠٧.

(٣) ظهر المصلح البربر في الإمبراطورية الرومانية بعد خلافات حادة في حق المواطنة الرومانية، فبعدما منح الإمبراطور كاراكلا (٢١١–٢١٧م) في عام(٢١٢م) جميع سكان الإمبراطورية حق الوطنية الرومانية. صدور مرسوم بالتفريق بين سكان الإمبراطورية من الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧–٥٦٥م)، واعتبر أن الوطنيين الرومان هم الرعايا، والخارجين عن دائرة التمدن الروماني البيزنطي أجانب، ويطلق مصطلح (Barbarus) في اللاتينية على الواحد منهم (محمد محسن البرازي: محاضرات في الحقوق الرومانية، القاهرة، مؤسسة هنداوي، عام٢٠١٧م، ص ٨٩–٩٠).

غير الإغريقية أو ناطقي اللغة الإغريقية بطريقة خاطئة، وكانت تستخدم للإشارة إلى أي شخص غريب أو حضارة أو ثقافة أجنبية التقوا بها لا يتحدث أفرادها اللغة الإغريقية، وكذلك تطلق أيضًا على الإغريق الذين لا يجيدون اللغة اليونانية ويتبعون العادات اليونانية الكلاسيكية(١). ثم أخذ الرومان عن الإغريق هذا المصطلح ليطلق بعد ذلك على كل من لا يتحدث اليونانية واللاتينية(٢). ومنها انتشرت في كل اللغات بنفس الصيغة الصوتية عند جميع الأمم والحضارات القديمة، للإشارة إلى أي شخص غريب عنها أو أمة لا تشاركها اللغة والموطن، حتى بات المصطلح تطلقه جميع الأمم على جميع الأمم الأخرى(٣).

ومن هذا الاشتقاق اللغوي وانتشار المصطلح في لغات العالم القديم، يستدل البعض أن كلمة البربر هي تسمية قديمة ظهرت قبل اليونان والرومان، وأحرى قبل العرب الذين استعملوا هذا الاسم أيضًا قبل الفتح الإسلامي. وحجتهم على ذلك أن المصطلح كان يطلق على العناصر ذات العائلة اللغوية الواحدة من جهة السرعة في كلامها، أو إقامتها بشاطئ النيل السريع، أو من حيث إنها كانت تمثل الرُّحل الذين يسيرون من مكان لآخر. فالمصطلح لديهم كان يضم عائلة من الشعوب الأفريقية القديمة الناطقة بالبربرية، والتي كانت تتوزع من البحر الأحمر شرقًا إلى السينغال غربًا، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى نيجيريا جنوبًا(٤).

وعلى أية حال، فإن وجود مصطلح البربر في اللغة اليونانية القديمة وكذلك اللغة اللاتينية، وغيرهما من لغات العالم القديم، لهو دليل على انتشار المصطلح خارج البيئة العربية.

---

(١) محمد مختار العرباوي: هل كلمة البربر شرقية عربية، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، العدد ٢٥، الجزائر، عام٢٠١٠م، ص ٢٥٨؛ ديميتراكس: المعجم الهجائي والتفسيري الجديد لكل اللغات اليونانية، إصدار عام١٩٧٠م.

– Dimitraks: Le Nouveau Dictionnaire orthographique et interprétatif de toute la langue grecause, Edition 1970.

(٢) محمد حقي: البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة أثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية، ط١، الدار البيضاء، شركة النشر المدارس، عام ٢٠٠١م، ص٢٦.

(٣) الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، ط٢، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر، عام١٩٨٦م، ص٦٣.

(٤) علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط٦، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، عام٢٠٠٣م، ص(ز،ح) من مقدمة المؤلف.

هذا الأمر الذي يستدعي البحث في الواقع اللغوي والثقافي لهذه الكلمة ومدلولاتها. ومن خلال البحث اللغوي لمدلول كلمة البربر في معاجم اللغة اليونانية(١)، واللغة اللاتينية(٢)، تبين لنا أن الكلمة تدل على الازدراء والتحقير فتحمل المعاني التالية: (الغريب، والهمجي، والوحشي، أو اختلاط الأصوات غير المفهومة). لكن الطريف أن نجد البنية الصوتية لهذا الكلمة في هذه المعاجم، هي نفس البنية التي جاءت بها معاجم اللغة العربية، كما أن الترادفات والدلالات والمعاني التي أتت بها هذه المعاجم تتفق تمامًا مع ما جاءت به معاجم اللغة العربية(٣).

ورغم تشابه البنية الصوتية لكلمة بربر وتوافق دلالتها في عدد من اللغات المختلفة، لا يعني هذا انتقال الكلمة من لغة إلى أخرى؛ بل يكون السبب ناجمًا عن وجود غريزة لغوية في تركيب عقل الإنسان تؤثر في التراكيب اللغوية لديه، فتولد نفس الكلمة عند شعوب مختلفة، وبالتالي لا يكون مصدرها إلا النظرة الشعبية للخلاف اللغوي، فكل من لا نفهمه ويفهمنا يصبح مدعاة للسخرية والتهكم، وقد نجد صدى لهذا التحقير في أيامنا عند من نسميهم بالمثقفين. فالناس دائمًا يميلون في مواجهة الاختلاف اللغوي إلى السخرية من عادات الآخرين اللغوية، على اعتبار أن لغتهم هم هي الأجمل والأدق، وأن اختلاف لغة الآخر نقصًا فيه، وكلامه ما ليس إلا بربرة وثرثرة(٤).

---

(١) صموئيل كامل عبد السيد وارتيميس ثلاسينوس: قاموس عربي يوناني، بيروت، مكتبة لبنان، عام١٩٩٠م، ص٢٤، ٤٢٩، ٤٤٢.

(2) Oxford Latin Dictionary, Oxford At the Clarendon Press, 1968, p.225.

(٣) مادة (بربر) في معجم الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين مريب على حروف المعجم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، عام٢٠٠٣م، ج١، ص١٢٩؛ الجوهري: الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، عام١٩٧٩م، ج٢، ص٥٨٨؛ ابن منظور: لسان العرب، ط٣، بيروت، دار صادر، عام١٤١٤هـ، جـ٤، ص٥٥–٥٦؛ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط٨، بيروت، مؤسسة الرسالة، عام٢٠٠٥م، ص٣٤٩؛ محمد مرتضي الزبيدي: تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق على هلالي وأخرون، ط٢، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، عام٢٠٠٤م، جـ١٠، ص١٥٩–١٦٠.

(٤) لويس جان كالفي: حرب اللغات والسياسة اللغوية، ترجمة حسن حمزة توزيع، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عام٢٠٠٨م، ص١١٠.

ولكن حين ننظر لتداول لفظ البربر في لغات الحضارات القديمة اليونانية والرومانية بالتوازي مع اللغة العربية من الناحية التاريخية، نجد أن اللفظ قد تم استعماله أيضًا من قبل اليونان والرومان لوصف البلاد الصومالية مثلما استعمله العرب قبل الإسلام، فنجد المؤرخين اليونان والرومان الذين زاروا المناطق الصومالية قد ذكروها باسم بلاد (بربري)[١]، وخاصة المؤرخ اليوناني المجهول صاحب كتاب "الطواف حول البحر الأريثري"، الذي زار المنطقة في القرن الأول الميلادي واصفًا أسواقها وموانئها[٢]. وكذلك ذكرها المؤرخ الروماني " كوزماس" بهذا الاسم في مؤلفه المرسوم بطبغرافية العالم المسيحي في بدايات القرن الساس الميلادي[٣].

وتدل المعلومات التي أوردها الكتَّاب والمؤرخون من اليونان والرومان، على أن بلاد الصومال قد شهدت على علاقات تجارية وطيدة مع حضارات البحر المتوسط، خاصة في عصر سيطرة الإغريق ومن بعدهم الرومان على سواحل البحر الأحمر. خاصة في المراكز التجارية والموانئ الواقعة على الساحل الصومالي، والتي قصدها الرومان من أجل الحصول على البخور والعطور والعاج والفضة وغيرها من مختلف السلع[٤]. ومن الجدير بالذكر أن نجد هؤلاء الكُتَّاب قد فرقوا في مؤلفاتهم بين سكان الصومال القدماء والحبشة؛ فاطلقوا اسم (البرابرة) على سكان الصومال،

---

(١) المسيو جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية، ترجمة يوسف كمال، القاهرة، عام١٩٢٧م، ص٦٦،٥١.

(2) the preiplus maris erythraei, text with introduction translatin, and commentary by lionel casson, , university press, 1989, pp. 158:177.

(3) Cosmas Indicopleustes: The Christian Topography of Cosmas, an Egyptian Monk: ranslated from the Greek, and Edited with Notes and Introduction, (TRANS, J. W. McCrindle Cambridge Library Collection – Hakluyt First Series) , London 2010.

(٤) حمدي السيد سالم: الصومال قديمًا وحديثًا، مقديشو، الدار القومية للطباعة، عام١٩٦٥م، ج١، ص٣٢٨–٣٣٣.

و(الإثيوبيين) التي تعني ذوي البشرة المحترقة أو السوداء أو الزيتونية اللون على سكان الحبشة والفرق واضح(١).

وبما أن اسم البربر ارتبط بوصف المناطق الصومالية في اللغة اليونانية واللاتينية وكذلك العربية، لهو دليل قاطع على أن هذه البلاد تلقت اسمها من أصحاب هؤلاء اللغات منذ القرن الأول الميلادي. ولا يعني هذا أن حضارة بلاد الصومال قامت في هذه العصور؛ فقد أثبتت البعثات الأثرية المتعاقبة لبلاد الصومال، أن هذه البلاد كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري القديم، في فترة ترجع إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد على الأقل تقدير(٢). كذلك ربطتها علاقات تجارية مع المصريين القدماء، وكانت تسمى حينها بأرض " بُنط" أو " بُنت" (Punt) أو الأراض المقدسة، وأرض الإله، وأرض البخور والعطور....، وقد سجلت جدران المعابد المصرية هذا الاسم في العدد من البعثات التجارية من وإلى تلك البلاد، وهي عصور سابقة لسيطرة الإغريق والرومان على ساحل البحر الأحمر(٣).

ولكن عندما تداعت الدولة المصرية إثر تعرضها لاحتلال خارجي متتابع (الآشوري، الفارسي، اليوناني، الروماني على التوالي) اختفت بلاد البُنط عن الأضواء مع اختفاء المصريين. ولكن مع بدايات سيطرة الإغريق على ساحل البحر الأحمر، عرفوا تلك البلاد وأطلقوا عليها اسم (أروماتياريحبو) أي إقليم العطور، ونقلت إلينا أعمال الجغرافيين اليونان الكثير عن أحوال سكان المنطقة فالجغرافي "سترابون" ذكر فيما كتبه عن إفريقيا الكثير من

---

(١) إثيوبيا (Aethiops) كلمة يونانية بمعنى ذوي البشرة المحترقة أو السوداء أو الزيتونية اللون، وتتكون من مقطعين: (Aitheim) بمعنى محترق، و(ops) بمعنى وجه. وكانت تطلق على العناصر التي تسكن المساحات الشاسعة الممتدة جنوب مصر من أفريقية غربًا إلى آسيا شرقًا إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن، عام ١٩٥٩م، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ص٤).

(6) Brandt, S.A.: The Upper Pleistocene and Early Holocene Prehistory of the Horn of Africa, The African Archaeological Review, Vol. 4 (1986), pp. 41–82.

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع، شحاته آدم محمد: الرحلات والبعثات برًا وبحرًا في مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى نهاية عهد الدولة الوسطى، رسالة دكتوراه (غير منشورة) قسم التاريخ كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام١٩٦٦م، ص١٤١.

عادات أهل البلاد، ووصف لنا طرق الدفن والجنازات عند سكان ساحل الصومال، وهذه الطقوس تشبه الكثير من الطقوس التي يزاولها الصوماليون اليوم(١).

وعندما ورث الرومان عرش اليونان بسطوا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر في شرق أفريقيا، ثم دالت دولة الرومان وثل عرشها، وبدأت تتسلخ عنها الممتلكات البعيدة قبل القريبة، وضاع منها صولجان تجارة البحر الأحمر وخرجت من يدها بلاد ساحل شرق أفريقيا. في الوقت نفسه كان اسم بلاد بربري أو بربر أو بربرة قد شاع عند وصف المناطق الصومالية منذ القرن الأول الميلادي في كتابات المؤرخين والجغرافيين والرَّحالة في الحضارات المختلفة عبر عصور التاريخية.

ولو أردنا معرفة حدود بلاد الصومال والمناطق التي سكنوها منذ العصور الوسطى؛ فإننا نستطيع معرفة ذلك بفضل الجهود العظيمة للجغرافيين والرَّحالة المسلمين منذ بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، فنجد المتقدمين منهم يقدمون إشارات لبعض حدودها. ففي أقدم مصادر الجغرافيا العربية "لابن خُرْدَاذْبَهْ" (ت:٢٨٠هـ/٨٩٣م)، ولعله أقدم من أشار إلى بلاد الصومال باسم البربر، حيث يذكر بعضًا من حدودها خلال حديثه عن البحر الأحمر فيقول: "... **ومن هذا البحر، خليج يخرج من أرض الحبشة يمتد إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربري،.... وأصل الذي يبتدئ منه في البحر الأعظم**"(٢). ورغم أنه لم يقدم أي وصف لناحية البربر، لكنه أشار إلى معلومة جغرافية مهمة خلال تحديده لمسافة الخليج البربري – عدن– الذي يمتد طوله من أرض الحبشة شمالاً، حتى البحر الأعظم – المحيط الهندي– جنوبًا؛ وهي أن بلاد البربر تحدها أرض الحبشة شمالاً حتى ساحل البحر الاحمر، وساحل خليج عدن من البحر شرقًا. الأمر الذي يجعل هذا التحديد ينطبق تمامًا من الناحية الجغرافية على أرض الصومال.

---

(١) عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في شرق أفريقيا وجنوب الصحراء ط١، ليبيا، نشر جامعة بنغازي، عام١٩٩٨م، ص٧٢؛

– Copans, (L), Histoir de L'Afrique Noire Dakar, 1982, P. 117.

(٢) المسالك والممالك، ص٢٣٠.

وقد أكد أيضًا "ابن رُسته"(ت: نحو ٣٠٠هـ/٩١٢م) على هذا الموضع الجغرافي لبلاد الصومال خلال حديثه عن المحيط الهندي بقوله: ".. **فأما البحر الهندي، فإنه يمتد من المغرب إلى المشرق، وذلك من أقصى الحبش إلى أقصى الهند، يخرج منه خليج عند أرض الحبش، يمر إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربري**"(١)، وفي موضع آخر، نجده يصف الساحل الشرقي لبلاد الصومال، خلال استكماله لوصف هذا المحيط فيقول:".. **أما بحر الهند إذا قطع الراكب البحر عند غِبٍّ – آخر– عدن، فإن أول ما يصير إليها جزيرة يقال لها بَرْبَرَ، وهي مسكونة وفيها جنس من الزنج**(٢) **يتصلون ببلاد السودان، وفي تلك الناحية بلاد الزنج... وكل هؤلاء الذين ذكرنا وغيرهم من تلك الناحية الغربية**"(٣). وهنا نلاحظ من قول "ابن رُسته" بالناحية الغربية أنه قصد الساحل الشرقي للصومال، الواقع في غرب الهند، أما قوله بالجزيرة التي يقال لها بَرْبَرَ في محاذاة أخر عدن فإنه قصد الجزء المعروف برأس شبه الجزيرة الصومالية من القرن الأفريقي، الذي يفصل بين خليج عدن من ناحية والمحيط الهندي من ناحية أخرى.

لهذا يمكن لنا القول أن الحدود العامة لموضع الصومال قد رسمت منذ القرن الثالث الهجري(التاسع الميلادي)، فكانت بلاد الحبشة الحدود الشمالية لها، وشَكَّل الساحل الجنوبي لخليج عدن حدودها الشرقية، بينما كانت بلاد الزنج تحدها جنوبًا وباقي بلاد السودان جهة الغرب. وهذ الذي أكده "المسعودي"(ت:٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) بعد فترة قليلة من تدوين "ابن خُرداذبه" و"ابن رُسته" معلوماتهما عن بلاد الصومال، بقوله: " .. **وليس في المعمور أعظم من هذا البحر، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربري من بلاد الزنج والحبشة، ويسمى الخليج البربري**"(٤).

---

(١) الأعلاق النفيسة، ص٨٣:٨٤.

(٢) الزنج وصفٌ أطلقه الجغرافيُّون المسلمون في العصور الوسطى على سكان جنوب شرق أفريقيا، وخصوصًا سكان منطقة ساحل جنوب شرق أفريقيا، المعروف اليوم باسم كينيا وتنزانيا(محمد عبدالله النقيرة: انشار الإسلام في شرق أفريقيا ومناهضة الغرب له، الرياض، دار المريخ، عام١٩٨٢م، ص٣٩–٤١).

(٣) ابن رُسته: الأعلاق النفيسة، ص٨٨.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٨٤.

واستكمالاً للتحديد العام الذي قدمه "المسعودي"، يقدم لنا معلومات أكثر تفصيلاً عن جغرافية الساحل الصومالي بقوله: "... **أن أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري، وهم يعرفونه ببحر بربري وبلاد وجفوني**"(١). من قوله نلاحظ معلومتين، **أولهما:** أن مسمى بربري انعكس على البيئة المحيطة للصومال؛ بحيث كان الخليج الفاصل بين الصومال واليمن يسميه الجغرافيون بالخليج البربري. فهذا مثلاً "ابن الفقيه الهمداني"(ت: نحو ٣٤٠هـ/٩٥١م) وهو جغرافي معاصر "للمسعودي" يذكر في القول عن البحار وإحاطتها بالأرض، أن البحر الكبير يمتد من قلزم مصر، حتى يبلغ بربر، إلى أن يصل لجبال الصين(٢). وهو الذي يشتهر في وقتنا الحالي بخليج عدن، غير أن اسم بربري الآن اقتصر فقط على إحدى مدن شمال الصومال الساحلية التي تطل على الخليج وهي مدينة بربرة(٣).

وثانيهما: أن هذه بلاد عرفت باسمين هما بربري وجفوني، هذا الأمر الذي جعلنا نبحث في دلالة الاسمين، فالواضح أن بربري هو الاسم الذي اشتهر به الخليج الذي يضم الساحل الشمالي للصومال. إذن فما دلالة اسم جفوني؟. وللوقوف على أمره تطلب البحث عن أمر مماثل في تدوينات الجغرافيين اللاحقين "للمسعودي" عن بلاد الصومال، وقد وجدنا أن "الإدريسي"(ت:٥٦٠هـ/١١٦٥م) حين قدم وصف لبلاد الصومال ذكر أن هذه البلاد بها جبل مشهور يسمى (خاقوني)، وقال عنه:"... **منها جبل خاقوني، وهو جبل له سبعة رؤوس خارجة، ويمتد تحت الماء في البحر..**"(٤). وهو الذي ذكره أيضًا "ابن سعيد المغربي" (ت:٦٨٥هـ/١٢٨٦م) ولكن باسم (حافوني)، فقال:".. **وفي شرقيها حافوني، الجبل المشهور عند المسافرين، ويظهر داخلا في البر جنوبا نحو مائة ميل، ويدخل في البحر نحو مائة وأربعين ميلا في الشمال بتعرج للمشرق. وفي الظاهر منه سبعة رؤوس يعدَّها المسافرون على بعد، ويعطون البشارة إذا جاوزوها وخلصوا من ذلك الطرف**"(٥).

---

(١) نفس المصدر والصفحة.
(٢) الهمذاني: البلدان، ص٦٣.
(٣) رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية، ص٩١.
(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٤٨.
(٥) كتاب الجغرافيا، ص٨١؛ بسط الأرض في الطول والعرض، ص١٤.

والواضح لنا من الوصف والتحديد الجغرافي للجبل المشهور بالسبع قمم عند "الإدريسي" و"ابن سعيد"، أنه نفس الجبل عندهما وإن اختلفت الأسماء بينهما في بعض أماكن النقاط؛ وربما كان هذا مرجعه عدم معرفتهما للاسم الصحيح، أو أخطاء من الرواة أو المترجمين. وخاصة ونحن نعلم يقينًا أن "الإدريسي" و"ابن سعيد" لم يزورا تلك البلاد(١). لكن المؤكد من وصفهما أن هذا الجبل كان علامة واضحة يستدل بها البحارة لجهة بعينها، وهذا الأمر هو الذي قصده "المسعودي" باسم جفوني.

لذلك يمكن القول أن الجبل الذي ذكراه "الإدريسي" و"ابن سعيد" باسم خاقوني أو حافوني، لعله الذي ذكره "المسعودي" باسم جفوني بل هو؛ لأن صفات هذا الجبل له قمم خارجة من الماء، تحوي بينها جيوب ممتلئة بالماء. وهذا المعنى جاء به القرآن الكريم بلفظ: "**وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ**"(٢)، والذي ذكره "الطبري" (ت:٣١٠هـ/٩٢٣م) في تفسيره بأنه يعني أوعية كالأحواض، يستنقع فيها الماء(٣). لذلك يتأكد لنا أن اسم جفوني الذي ذكره "المسعودي" هو نفس الجبل الذي ذكراه "الإدريسي" و"ابن سعيد"، بل هو الأصح من حيث المصطلح ومعناه؛ لأنه الجغرافي الوحيد الذي زار المنطقة دونهما، وشارك البحارين في عبور هذه الجهات. فلذلك ينبغي التثبّت وتدقيق البحث في الأخبار الّتي يحاكيها الجغرافيّون عن أهل المنطقة؛ لأنّ كثيرًا منهم لم يزوروا البلد، وإنّما اكتفوا باستخبار القادمين منها كالتجار(٤).

---

(١) رغم أن الإدريسي طاف بعدد من البلاد فزار الحجاز و تهامة ومصر، وعاش فترة في صقلية ونزل فيها ضيفًا على ملكها روجر الثاني، الذي وضع له خارطة العالم المعروفة باسم "لوح التربسيم" على دائرة من الفضة. وفي إحدى المرات قدم وصفًا عن وضع بلاد السودان ومدنها، إلا إنه اعتمد على الاستماع إلى بعض القصص والروايات. أما ابن سعيد، فقد قام أيضًا برحلة طويلة، زار من خلالها عددًا من البلاد منها مصر والعراق والشام، وتوفي بتونس، وقيل: في دمشق، ولم يزور أكثر البلاد التي ذكرها في جغرافيته، والواضح أنه اعتمد في أغلب معلوماته على مادة الإدريسي وتبويبها (عبد الرحمن حميدة: أعلام الجرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط١، دمشق، دار الفكر، عام١٩٨١م، ص٣٨٨،٤٨٩).

(٢) سورة سبأ، آية ١٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، الجيزة، دار هجر، عام٢٠٠١م، ج١٩، ص٢٣٢وما بعدها.

(٤) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، جدة، دار البيان العربي، ط (د.ت)، ص١٠٢.

وهذا الجبل يقع حاليًا على شبه جزيرة خافون (رأس حافون) في شمال الساحل الشرقي للصومال من المحيط الهندي(١). إذن فالمعلومة الجغرافية التي أراد أن يقدمها "المسعودي" والتي كانت أكثر تفصيلاً عن ساحل بلاد الصومال، هي أن لهذه البلاد ساحلين: أحدهما الساحل الشمالي وهو الذي ذكره باسم بربري، والأخر الساحل الشرقي وهو الذي ذكره باسم جفوني. وهذه المعلومة يؤكدها "المسعودي" نفسه بقول:"... **كانوا إذا– توسطوا فيه– وحفتهم الأمواج يرتجزون قائلين: بربري وجفوني، وموجك المجنون. جفوني وبربري، وموجها كما ترى**"(٢). ويؤكد "ابن سعيد" أيضًا هذا المعنى بقوله:"... **وفي الظاهر منه سبعة رؤوس يعدَّها المسافرون على بعد، ويعطون البشارة إذا جاوزوها وخلصوا من ذلك الطرف**"(٣).

وفي موضع آخر يقدم "المسعودي" معلومة أخرى أكثر تفصيلاً عن الحدود الفاصلة لتلك البلاد جهة الشمال، والتي كانت تفصل بينها وبين الحبشة، فقال:".. **وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج ،... على الخليج البربري، وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزيلع وناصع**"(٤). وهي نفس المعلومة التي ذكرها عند وصفه لحدود بلاد الحبشة على الساحل جهة الجنوب، فقال: "... **ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة، وهو مقابل لبلاد اليمن، فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناصع، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين، إلا إنهم في ذمة الحبشة**"(٥).

(١) المسيو جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية، ص١١٠.
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٨٤.
(٣) كتاب الجغرافيا، ص٨١؛ بسط الأرض في الطول والعرض، ص١٤.
(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٥.
(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص١٥.

والمعلوم في ترتيب مواضع هذه المدن على ساحل البحر الأحمر، جاءت من الجنوب إلى الشمال كالتالي: زيلع[١]، ثم أرخبيل دهلك[٢]، ثم باضع[٣] والتي ذكرها ناصع؛ وهو أمر اعتاد عليه الجغرافيون المسلمون بوضع الجنوب في رأس خرائطهم، من مبدأ أن العالم يبدأ من جهة الجنوب، وذلك عكس ما نتعامل به في مصوراتنا الجغرافية اليوم[٤]. إذن ترتيب

(١) زيلع (زيلا): مدينة في أقصى شمال الصومال على الحدود مع جمهورية جيبوتي، وتطل علي الساحل الصومالي من البحر الأحمر علي بعد خمسين ميلا جنوب مضيق باب المندب، وتبعد عن مدينة بربرة بحوالي٢٠٠كم وإلى الشمال الغربي منها. دخلها الإسلام منذ القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) بعد هجرة العرب للساحل الشرقي لإفريقيا. (زين العابدين عبدالحميد: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدن الساحل الصومالي، ص٢٦؛ عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ١٠٠٠مدينة إسلامية، ص٢٦٩).

(٢) دهلك: وهو اسم الجزيرة الرئيسية في مجموعة أرخبيل الجزائر والمعروفة بالاسم ذاته، وتقع في البحر الأحمر قبالة الشواطئ الإريترية قرب مدينة مصوَّع، ومصوع هي ميناء بحري تبعد عن العاصمة أسمرة بحوالي ١٠٠كم شرقًا، وسكان هذه الجزيرة من أصل تكرى وهم يتحدثون بهذه اللغة. وقد دخل الإسلام إلى جزيرة دهلك في عهد متقدم جدا. وكانت تتخذ منفي في عهد الأمويين والعباسيين(الشاطر البصيلى عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة، عام١٩٧٢م، ص١٤٥؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير مجموعة من المستشرقين، ط١، الإمارات، مركز الشارقة للإبداع الفكري، عام١٩٩٨م، جـ١٦، ص٤٩٥٨؛ عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ١٠٠٠مدينة إسلامية، ص٤٦١).

(٣) باضع: تحديدًا تقع هذه الجزيرة على الساحل السوداني في جزئه المعروف باسم خور نوارات، على جزيرة صغيرة تعرف باسم جزيرة الريح، وهي تقع على خط عرض ١٨ درجة و ٩ دقائق، وخط طول ٣٨ درجة و ٢٨ دقيقة، وهي قريبة للغاية من خط الساحل، ويكاد يربطها به لسان من الأرض المستوية ليبدو صخريًا في بعض المواقع.(صلاح الدين الشامي: صلاح الدين الشامي: الموانئ السودانية دراسة في الجغرافية التاريخية، القاهرة، مكتبة مصر، عام١٩٦٢م، ص٩٦).

(٤) تميزت الخرائط العربية بعدة سمات خاصة، لعل أبرزها وضع الجنوب في أعلى الخريطة، وقد حار الباحثون في تعليل ذلك، ويرجح أن وضع الجنوب في أعلى الخريطة كان له مغزى ديني؛ حيث أن جميع العواصم الإسلامية كانت تقع شمالي مكة (المدينة، الكوفة، دمشق، بغداد، القاهرة)، ومعنى ذلك أن الخليفة كان يتجه في صلاته صوب الجنوب، صوب الكعبة، لذلك كان لا بد أن يوضع الاتجاه الجنوبي في أعلى الخريطة لأن الاتجاه الجنوبي يعني الاتجاه صوب القبلة، وهي أشرف بقعة يتجه إليها المسلمون. كما وأن في وضع الجنوب أعلى الخريطة مخالفة لغير المسلمين، فلو نظرنا إلى خرائط الدولة الرومانية في العصر المسيحي نجد اتجاه الشرق يوضع في أعلى الخريطة، حيث الأماكن المقدسة المسيحية تقع شرقًا في بيت المقدس (محمد محمود محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ط٣، الرياض السعودية، دار العلوم للطباعة، عام١٩٩٩م، ص٢٢٨).

مواضع المدن التي ذكرها "المسعودي" وفقًا للخرائط الحالية تكون معكوسة، وبالتالي تكون زيلع آخر حدود بلاد الحبشة جنوبًا، وعندها أول بلاد الصومال شمالاً.

وعلى الرغم من أن "المسعودي" ذكر في عصره أن زيلع تخضع لنفوذ الحبشة وجزء من بلادها، وبذلك تمثل الحد الفاصل بين أرضها وأرض الصومال على ساحل البحر الأحمر، إلا إن سابقيه ومعاصريه من الجغرافيين والمؤرخين وكذلك اللاحقين منهم، تباينوا في آرائهم حول وقوع زيلع في تبعيتها ضمن نطاق نفوذ الصومال أو الحبشة أو غيرهما. فنجد مثلاً "اليعقوبي"(ت: بعد٢٩٢هـ/٩٠٥م) الذي يُعد أول من أورد ذكرها في مؤلفه الذي انتهى منه بعد عام (٢٥٨هـ/٨٧٢م) بقيل، أي في زمن سابق لعصر "للمسعودي" بعدة عقود، والذي جعل فيه زيلع من جزائر اليمن(١).

والمؤكد أن "اليعقوبي" لا يقصد بذلك أن زيلع كانت ضمن النطاق الجغرافي لبلاد اليمن، إنما قصد بأنها خضعت في العصر الذي دوَّن فيه كتابه لنفوذ اليمن؛ وتحديدًا لإمارة بني زياد التي سيطرت على منطقة تهامة باليمن، حيث استطاعت تلك الإمارة منذ بداية قيامها عام(٢٠٤هـ/٨١٩م)، أن تخضع معظم جزائر الساحل الأفريقي تحت سلطانها(٢).

وقد أكد هذا الأمر أيضًا "ابن يعقوب الهمداني"(ت: حوالي٣٣٤هـ/٩٤٥م)، وهو أحد الجغرافيين اليمنيين المعاصرين "للمسعودي"، وذلك خلال حديثه الذي ذكره عن جزائر البحر الأحمر، فقال:" .. **وأما ما يجاور سواحل اليمن من الجزائر التي في البحر المحيط بها فدهلك، وكمران، وهي حصن لمن ملك يماني تهامة– يقصد بني زياد– فجزائر فرسان،**

(١) البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (د.ت)، ص١٥٥.

(٢) إمارة بني زياد هي إمارة نشأت في مدينة زبيد باليمن، أسسها محمد بن عبد الله بن زياد الأموي، وكانت أول إمارة شبه مستقلة في اليمن، عندما أرسله الخليفة العباسي المأمون إلى اليمن حاكمًا باسمه، عام٢٠٣هـ/ ٨١٨م، فاختط مدينة زبيد واتخذها قاعدة لملكه في عام٢٠٤هـ/٨١٩م، ثم تمكن من فرض سيطرته على منطقة تهامة باليمن، واخضع جميع القبائل العربية الثائرة فيها، وأخذ الخليفة المأمون يمده بجيش قوي حتى عظم أمره وملك إقليم اليمن بأسره، واستمرت إمارته بوراثة أبنائه وأخوته حتى عام ٤٠٩ هـ/١٠١٩م(عبد الرحمن بن على الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، عام١٩٨٣م، ص٥١، وما بعدها).

فجزيرة زيلع، وفيها سوق يجلب إليه المعزى من بلاد الحبش، فتشترى أهبها ويرمى بأكثر مسالخيها في البحر"(١).

بينما نجد "الاصطخري"(ت: بعد ٣٤٠هـ/٩٥١م) وهو أيضًا جغرافي معاصر "للمسعودي"، لكنه يتفق معه فيما ذكره من أن زيلع كانت في عصرهما خاضعة لنفوذ الحبشة، فقال:".. **وهم متفرقون–أي الحبشة– في ساحل هذا البحر إلى أن يحاذى عدن، وما كان من النمور والجلود الملمعة، وأكثر جلود اليمن التي تدبغ للنعال تقع منها إلى عدوة اليمن، وهم أهل سلم ليسوا بدار حرب، ولهم على الشط موضع يقال له زيلع، فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن**"(٢).

والواضح أن زيلع خضعت في إدارتها لنفوذ بني زياد في الفترة التي سبقت زيارة "المسعودي" للمنطقة، لكنها عادت مرة أخرى تحت سلطة الحبشة في عصره. وهذا الأمر أكده "المسعودي" بنفسه، خلال حديثه عن سيطرة بني زياد على بعض جزر البحر الأحمر قبالة اليمن، والتي ما زالت قواتهم قائمة في بعضها حتى وقته، فقال:"... **وصاحب زبيد في وقتنا هذا إبراهيم بن زياد صاحب الحرملي، ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة، وتركب فيها التجار بالأمتعة، وبينهم مهادنة**"(٣).

وبالمقارنة بين التوقيت الذي ذكره "المسعودي" عن انعقاد الهدنة فيه، بين الحبشة وصاحب زبيد إبراهيم بن زياد، والذي حكم الإمارة في الفترة من (٢٤٢:٢٨٩هـ/ ٨٥٧:٩٠٢م)، والتوقيت الذي سجل فيه "اليعقوبي" معلوماته عن زيلع، أي قبل عام (٢٥٨هـ/٨٧٢م)، يؤكد ما ذهبنا إليه سابقًا فيما قصده "اليعقوبي" من جعل زيلع من جزائر اليمن. وبالتالي يمكن لنا القول أن زيلع خرجت عن نفوذ الحبشة منذ بداية القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي)، ثم عودتها مرة أخرى لنفوذ الحبشة في عصر "المسعودي"، حوالي أواخر القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي).

---

(١) صفة جزيرة العرب، ص٩٣.

(٢) المسالك والممالك، ليدن هولندا، دار بريل للنشر، عام١٩٢٧م، ص٣٥.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص١٦.

والراجح أن بني زياد تخلت عن إدارة زيلع في ذلك التوقيت؛ لأنها أمست آنذاك تحت سيطرة العناصر المسلمة التي كثرت في هذه البلاد، وهو ما أكده "المسعودي" في هذا التوقيت بقوله:".. **وهذه مدن فيها خلق من المسلمين، إلا إنهم في ذمة الحبشة**"(١).

هذا الأمر الذي يضمن لهم السيطرة عليها بقوة الرابط الديني والانتماء الروحي الذي يجمع بين إمارتهم الإسلامية في اليمن، ومسلمي الزيلع في الحبشة. ولربما هذا الرابط قامت عليه روابط أخرى اجتماعية، أو ولاءات وزعمات سياسية، كانت أكثر تفاعلاً واحتكاكًا. ولم لا!!.. وأن ذلك التوقيت كان شاهدًا على بوادر قيام أول إمارة إسلامية في منطقة (شوة) في ما يلي الهضبة الحبشية بظهير زيلع قبل عام ٢٨٣هـ /٨٩٦م(٢)، وذلك بفضل عناصر إسلامية ذات أصول عربية تأقلمت مع البيئة الصومالية(٣).

والواضح هنا أن هذه العناصر الإسلامية بدأت تستقل بإدارة زيلع ذاتيًّا عن نفوذ الحبشة منذ بدايات القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهذا وفق ما أشار إليه "ابن حوقل" (ت: بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، خلال حديثه عن الأحباش، فقال:".. **والجميع أهل سلم وليست دارهم بدار حرب، وعلى شط البحر بنواحيهم مَنْهَلٌ يقال له زيلع، فرضة للعبور الى الحجاز**

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٢، ص١٥.

(٢) يحتمل أنها قامت أقدم إمارة إسلامية في الحبشة في منطقة شوة، فوق مرتفعات الهضبة الحبشية، حيث تقع مدينة أديس أبابا الحالية، وذلك منذ عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م، وقد أسسها مهاجرون من قبيلة بني مخزوم العربية القرشية، واستمرت قرابة أربعة قرون، حتى عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، تمتعت خلالها بالأمن والاستقرار والتمتع بالنفوذ والثروة. وظل أمر تلك المملكة الإسلامية المخزومية مجهولاً، إلى أن اكتشف مستشرق إيطالي (روسيني شيروللي) وثيقة عربية، سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، تعرضت للأحداث التي مرت بها تلك المملكة في أواخر عهدها، حين دب فيها الضعف ومزقت أوصالها الصراعات والمنازعات والحروب، حتى طوتها إمارة أوفات إلى أملاكها عام٦٨٤هـ/١٢٨٥م، أقوى الإمارات الإسلامية آنذاك.(Trimingham: Islan In Ethiopia, London 1952, P.58, Note.T ؛ زاهر رياض: الإسلام في أثيوبيا، ط١، القاهرة، دار المعرفة، عام١٩٦٤م، ص٦٤-٧٤؛ إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة، ص٣٢؛ رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية، ص٦١-٦٢).

(٣) بولتشكه: هرر والصومال في شرق أفريقيا، لايبزيغ المانيا، عام١٨٨٤م، ص٢٥-٦٠؛
- Paulischke: Harar Und Somal In East Africa., Leipzig, 1884,. P25-60.

واليمن"[١]. والملاحظ من تحديده لموضع زيلع على البحر بقوله: **(بنواحيهم)**، إنما هو دليل على خروجها عن نفوذ الحبشة واستقلالها عنها؛ فلو أراد أن يجعلها من بلدانها أو تحت سلطتها، لذكر ذلك كما ذكر غيرها من البلاد. وما يؤكد مقصده استخدامه لكلمة **(منهل)**، والتي جاءت في معاجم اللغة في العصور الوسطى بمعنى المنزل في المفازة على طريق السفر[٢]. وهذا المعنى يتفق تمامًا مع وصف المناطق التي سيطرت عليها العناصر الإسلامية في ظهير زيلع آنذاك، وهي المناطق القريبة الاتصال بالهضبة الحبشية من ناحية الشرق، ويطلق عليها منطقة هرر، وهي التي تفصل الساحل عن الهضبة، لتصل بعدها بوادي نهر أواش الذي يتيح ممرًا طبيعيًّا ضيقًا يربطها بإقليم شوة في المنطقة الوسطى من الهضبة[٣].

وما يؤكد قولنا هذا وصف "ابن حوقل" نفسه عن الحبشة بأنهم أهل سلم وليست دارهم بدار حرب، ولا يعني هذا أن ليس للحبشة قوة عسكرية تستطيع بها ردّ العناصر الغربية عنها من السيطرة على بعض بلادها؛ ولكن يرجع ذلك لما أصاب بلادهم في عصر "ابن حوقل" من اضطراب حال مملكتهم وتعرضها للضعف والانهيار، وهذا الأمر وضحه لاحقًا في كتابه، قائلاً: ".. **وأمّا بلد الحبشة، فملكتهم مرأة مذ سنون كثيرة، وهى القاتلة لملك الحبشة المعروف كان بالحضاني، وهى مقيمة إلى يومنا هذا مستولية على بلدها وما جاورها من بلد الحضاني في دبور بلد الحبشة، وهو بلد عظيم لا غاية له ومفاوز وبرارىّ يتعذّر مسلكها**"[٤].

والواضح من قول "ابن حوقل" أن دولة الحبشة السليمانية كانت في النزع الأخير، فقد قامت بدلاً منها أسرة الأجويين في حكم الحبشة، بعد أن قضت على مملكة أكسوم الضعيفة

---

(١) صورة الأرض، ص٦١.

(٢) مادة (نهل) في معجم الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج٤، ص٢٧٣؛ الجوهري: الصِّحاح، ج٥، ص١٨٣٧؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٦٨١.

(٣) عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في شرق افريقيا، ليبيا، ص١٥٦،١٥٧.

(٤) صورة الأرض، ص٦٣.

منذ عام(٣٢٩هـ/٩٤٠م)[١]. لتدخل بعدها مملكتهم فيما عُرف بالعزلة الحبشية عن العالم، بعد أن مزقت الحروب والنزاعات السياسية والمذهبية أوصالها وتقطعت جهاتها، وباتت لا تستطع حماية مواردها وممتلكاتها[٢].

ولعل ما يؤكد ذلك أيضًا كتابات "المقدسي"[٣](ت: حوالي ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، والذي كان عصره مقابلاً لنفس العصر الذي شهد تلك الأحداث، ولعله يشير إلى ذلك باستخدام لفظ (وراء) فيقول:".. **والنوبة من وراء مصر، والبُجَة**[٤] **وراء عيذاب**[٥]**، والحبش وراء زيلع**".

---

(١) تعرضت مملكة اكسوم الحبشية منذ القرن الأول الهجري (السادس الميلادي) لمشاكل ونزاعات داخلية، انتهت بها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى الدخول فيما عُرف بالعزلة الحبشية عن العالم، إذ تدهورت أحوال المملكة وتمزقت وحدتها واستقلت مقاطعاتها، فاستغل تلك الأوضاع يهود الحبشة (الفلاشا) وقاموا سنة (٣٤٨هـ/ ٩٦٠م) بثورة عارمة قادتهم فيها امرأة عرفت باسم (استير) أو (جوديت)، أميرة مقاطعة (سمين) اليهودية، واستطاعت اعتلاء عرش المملكة، ينتقل بعدها تاريخ الحبشة تحت حكم أسرة جديدة هي أسرة (الزاجوي)، والتي حكمت الحبشة حتى سنة (٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، حيث عانى نصارى الحبشة خلال فترة حكمها من الاضطهاد والتشتت، إلى أن تمكن يكونو أملاك (٦٦٨:٦٨٤هـ/١٢٧٠:١٢٨٥م) الذي زعم أنه من نسل النبي سليمان– عليه السلام– من اعتلاء عرش الحبشة، وتأسيس الأسرة السليمانية التي ظلت تحكم الحبشة حتى هيلاساسي في العصر الحديث(محمد جلاء إدريس: يهود الفلاشا أصولهم ومعتقداتهم وعلاقتهم بإسرائيل، القاهرة، مكتبة مدبولي، عام١٩٩٣م، ص٧٧–٧٨).

(٢) رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية، ص٧١.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٤٤.

(٤) البُجة: عرف العرب في العصور الوسطى القبائل التي سكنت الصحراء الشرقية جنوبي مصر باسم قبائل البُجة أو البُجاة، وأشاروا إلى أن أوطانهم امتدت فيما بين جنوب شرق الصعيد من البلاد المصرية، إلى شمال بلاد النوبة والحبشة، وبين البحر الأحمر شرقًا، ونيل مصر والسودان غربًا. ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقًا، ونهر العطبرة، ثم النيل الأكبر غربًا، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية محافظة أسوان في الشمال. وقد تبلغ هذه المساحة حوالي ١١٠,٠٠٠ ميل مربع موزعة بين مصر والسودان وإريتريا.(مصصفى محمد مسعد: البجة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد٢١، الجزء٢، ديسمبر١٩٥٩م، القاهرة١٩٦٤م، ص١–٤).

(٥) عيذاب: وهي أكثر موانئ البحر الأحمر شهرة في العصور الوسطى، وقد لعبت دورًا تاريخيًا مهمًّا على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي. وقد استخدمت للأغراض الحربية في بداية الأمر، وما لبثت أن أصبحت تستخدم للأغراض التجارية حتى باتت أعظم ميناء تجاري في المنطقة، وبذلك أصبحت مدينة عيذاب أكبر سوق تجاري آنذاك. والآن عيذاب وميناؤها أصبحت خرائب تقع شمال حلايب الحالية بنحو ٢٠ كم عند دائرة عرض ٢٠، ٢٢ شمالاً كمكان مندثر. (عبد العال عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، طريق عيذاب قوص خلال العصر الوسيط، القاهرة، عام١٩٩٨م، ص٢٨).

ويبدو من وضع كلمة **(وراء)** وتكرارها بين المواطن والبلدان المذكورة، كأنه أراد أن يجعل بها علامة جغرافية أكثر منها سياسية؛ ليفرق بها بين بدايات ونهايات تلك البلاد، وبالتالي يتبين لنا استقلال البلاد اللاحقة للكلمة عن النفوذ الفعلي للبلاد التي تسبقها. ولكن رغم ذلك الحال في زيلع إلا إنها ظلت المنفذ الوحيد والرئيس لتجارة الحبشة إلى البحر الأحمر حتى زمن "البيروني"(ت:٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الذي وصفها في قانونه، بقوله:" **زيلع فرضة للحبشة نحو أرض اليمن**"(١).

ويعد "البكري" (ت:٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أول من ذكر إشارة صريحة في عصره عن تتمتع زيلع وغيرها من مدن الساحل الشرقي لأفريقيا بحكم ذاتي مستقل عن الحبشة، على أيدي العناصر المسلمة المقيمة فيها، فذكر قائلاً:"... **وبلاد الحبشة واسعة جدًا، ويتجهز إليهم التجار بالأمتعة من مصر واليمن، وما يجاورها من بلاد الزيلع وباضع وسواكن**(٢) **ودهلك، وفي هذه المدائن والجزائر المسلمون والمساجد والحكام..**"(٣).

والواضح هنا أن هذه العناصر المسلمة استغلت الظروف السياسية وحالة الفوضى التي ألمت بالحبشة، لتبدأ بمرحلة التأسيس الفعلي لبناء الإمارات الاسلامية على بعض مناطق الساحل الشرقي لأفريقيا، فاستطاعت منذ بدايات القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، من تأسس بعض الإمارات الإسلامية بما لديها من أدوات التجارة والروابط الدينية، وخاصة في مناطقة الساحل الصومالي وبعض الأجزاء المجاورة لها من بلاد الحبشة، والتي كان من أهمها زيلع كونها محطة تجارية مهمة. حتى اشتهرت هذه الإمارات في القرن السابع

---

(١) القانون المسعودي، ج٢، ص٥٤٨.

(٢) سواكن: مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر في شمال شرق السودان، وكانت تضم ميناء شهير في العصور الوسطى والإسلامية، واستطاعت أن تحل محل عيذاب كمنفذ تجاري لممالك السودان القديمة. هي الآن بلدة مهجورة بعد أن حلَّ مكانها ميناء بور سودان، وهي تقع على خط عرض ١٩,٥ درجة شمالاً، وخط طول ٣٧,٥ درجة شرقًا، في وسط سهل ساحلي منخفض يحاذي البحر الأحمر، وهذا السهل يحده من الشمال كتلة جبلية يزيد ارتفاعها عن١٠٠٠ متر فوق سطح البحر(محمد صالح ضرار: تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، عام١٩٩١م، ص٢٣).

(٣) المسالك والممالك، ج١، ص٣٢٧.

الهجري (الثالث عشر الميلادي) وباتت تُعرفت بمصر والشام باسم (بلاد الزيلع)[١]. والتي كان يعبر عنها (بممالك الطراز الإسلامي)؛ لأنها على جانبي البحر كالطراز له[٢].

ورغم الجهود التي بذلها هؤلاء المسلمون في هذه الفترة، من التوسع المنظم للإسلام دينًا ودولة، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية وتدعيم سلطانها، إلا إنها كانت فيما بينها مفككة الأوصال، لم يجمع بينها سوى الرباط الروحي، فكثرت المنافسات واشتدت النزاعات حتى في داخل الإمارة الواحدة ما أضعفها جميعًا[٣]. هذا الأمر الذي جعل من السهل على سلطة الحبشة المضطربة أن تخضع تلك الإمارات الإسلامية القائمة بأرضها تحت طاعتها ونفوذها السياسي، وكذلك ما كان مجاورًا لها ببلاد الصومال، وقد استطاعت تحقيق ذلك منذ بدايات القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وقد أكد هذا "الإدريسي"(ت: ٥٥٩هـ/١١٦٦م) في عصره، قائلاً:".. **ومن مدن الحبشة الساحلية مدينة زالغ ومنقونة واقتت وباقطى إلى ما اتصل بها من عمارات قرى بربرة..**"[٤]. ثم يذكر في موضع أخر:".. **ويتصل أيضا بأرض الحبشة على البحر بلاد بربرة وهم تحت طاعة الحبشة وهي قرى متصلة وأولها قرية جوة ومنها إلى باقطى ستة أيام، ومنها أيضًا إلى بطا البربة سبعة أيام ومدينة بطا المتقدم ذكرها فوق خط الاستواء في نهاية المعمور.**"[٥].

---

(١) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الحبوري، بيروت، مطبعة دار الكتب العلمية، عام٢٠١٠م، ج٤، ص٣٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، مطبعة دار الكتب العلمية، عام١٩٢٢م، ج٥، ص٣٢٤؛ وقد عدد القلقشندي الممالك التي اشتهرت بالطراز بسبع ممالك لكل منها ملك مستقل، وهي: وفات أو أوفات وجبرة، ودوارو، وأربيني، وهدية، وشرحا، وبالي، ودارة.

(٣) إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، ص٣٤.

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٤٧.

(٥) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٤٣.

والملاحظ من قول "الإدريسي" إنه أول جغرافي عربي يقدم في عصره معلومات أكثر تفصيلاً عن مدن وقرى الصومال وتعيين أسمائها، وذكرها كالتالي[١]: تبدأ بـ (جوة) وهي التي تقع حاليًا في شرق الساحل الشمالي عند منطقة بندر قاسم في بوساسو الحالية من خليج عدن[٢]، ثم (قرقونة) شرقًا في رأس جردفون، تتجه جنوبًا إلى (برمة) وهي التي تقابل رأس خافون حاليًا على الساحل الشرقي، ثم تليها جنوبًا (قرى الهاوية) في وادي شمال (مَرْكة) وهي التي تعُرف بمَرْكا الحالية في موقعها القائم على الساحل جنوب مَقْدِيْشُو، ثم وضح نهاية بلاد بربرا بطريقة أكثر دقة من الآخرين؛ فذكر أنها أخرها عند بلد (النُجا) قبل (بروة)، وبروة هذه هي التي تعُرف حاليًا بمدينة براوة على الساحل الصومالي، والتي أكد بأنها لم تكن ضمن بلاد البربر، إلا إن جزءًا من أرضها يقع في طاعة ملك البربر، والبعض الآخر في طاعة ملك الحبشة[٣].

ومن وصف "الإدريسي" لخريطته، يتبين لنا أن الحدود التي كانت تفصل بين بلاد البربر(الصومال) والحبشة تبدأ في شرق الساحل الشمالي، ثم تمتد جنوبًا على الساحل الشرقي حتى شمال براوة من بلاد الزنج. كذلك أيضًا يتبين لنا أن الزيلع كانت تضم مساحة شاسعة امتدت على طول الساحل الشمالي للصومال شرقًا حتى شمال مدينة الزيلع نفسها غربًا. ولكن من ناحية أخرى نرى في الإشارة التي قدمها "الإدريسي" عن بلاد البربر بأن أهلها مسلمون؛ وذلك خلال من وصفه لدونهم من أهل الزنج جنوبًا بأنهم:" **كفرة**"، وهما يتصلان[٤]. أضافة إلى ذلك أن منطقة الزيلع قد تغلغل فيها الإسلام آنذاك..! تبدو لنا الأسباب الحقيقية وراء سعي السلطة الحبشية من السيطرة على منطقة الزيلع وما مجاورها من أرض الصومال؛ فهذه المناطق أصبحت تمثل تواجد العناصر المسلمة في الساحل الشرقي لأفريقيا، حتى أضحت مستودعًا بشرًا هائلاً من العناصر المسلمة المختلفة الحامية منها والسامية، وبالتالي اجتماع تلك العناصر فيما بينها بقوة الرابط الروحي يشكل تهديدًا واضحًا ضد سلطتها في المنطقة.

---

(١) نزهة المشتاق، ج١، ص٤٨.
(٢) المسيو جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية، ص١٠٨.
(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٥٨.
(٤) نزهة المشتاق، ج١، ص٤٩.

والواضح أن مساعي الحبشة وسياستها لم تكن مجدية، بل آلت الى نتائج عكسية غير تلك التي كانت تطمح لها؛ فإخضاع بلاد البربر تحت طاعتها جعل من عناصرها رعايا للسلطة الحبشية، وبالتالي أتاح لهم ذلك حرية الحركة والتنقل خارج حدود بلادهم إلى كافة أرجاء المنطقة. وهذا ما تحقق فعليًا منذ نهايات القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). والذي نقله إلينا "ياقوت الحموي" (ت:٦٢٧هـ/١٢٢٩م) من خلال الروايات التي سمعها بنفسه عن زيلع، والتي أكدت أن العناصر البربرية استطاعت التوافد على زيلع حتى باتوا من أبرز عناصرها، فيقول:" **وحدثني الشيخ وليد البصري وكان ممّن جال في البلدان، أن البربر طائفة من السودان بين بلاد الزنج وبلاد الحبش،...** وقال: **وأكثر من ترى من هذه البلاد من الطائفة المعروفة بالزيلع السودان، إنّما هم..** (يقصد البربر)،...**وقال: وزيلع قرية على ساحل البحر من ناحية الحبش فيها طوائف منهم ومن غيرهم..**"(١).

ولعل ما يؤكد ما طرحنا، ويثبت نشاط وتحرك البرابرة اتجاه الإجراء الغربية من الساحل الشمالي للصومال الحالي، خاصة في المنطقة التي عُرفت باسم بلاد الزيلع من الحبشة، هو أن "ياقوت الحموي" نفسه حينما أشار إلى حدود بلاد البربر في مواضع أخرى من معجمه، أكد أن بلادهم لم تتجاوز المناطق التي حددها الجغرافيون السابقون وخاصة "الإدريسي"، والتي تنتهي في الأطراف الشرقية من الساحل الشمالي للصومال، لتمتد جنوبًا على الساحل الشرقي من المحيط الهندي. وهذه الإشارة تحديدًا قدمها خلال وصفه للبحر الأحمر في اتجاه غربي شمالي، قائلاً:".. **فالداخل إليه، يكون على يساره أواخر بلاد البربر، ثم الزيلع ثم الحبشة، ومنتهاه من هذه الجهة بلاد البجاء الذين قدمنا ذكرهم، وعلى يمينه عدن ثم المندب**"(٢). وفي موضع أخر أيضًا قدم له وصفًا غيره في اتجاه شرقي جنوبي، قائلاً:".. **ثم يمتد البحر حتى يتصل ببلاد الحبشة، ثم إلى الزيلع حتى ينتهي إلى مخرجه من البحر الأعظم (المحيط الهندي)، ثم إلى سواحل البربر، ثم إلى أرض الزنج في بحر الجنوب**"(٣).

(١) معجم البلدان، ج٣، ص١٦٤-١٦٥.
(٢) معجم البلدان، ج٣، ص٣٤٤.
(٣) معجم البلدان، ج٣، ص٣٨٨.

وبما أن كتابات "الحموي" توضح أثر الإسلام في تقوية الروابط التي صارت بين البربر والأحباش في زيلع على الساحل الشمالي للصومال، فأنها أيضًا تشير في مواضع أخرى إلى نفس الدور في قيام روابط أخرى أقوى، ولكن هذه المرة بين والبربر والعرب على الساحل الشرقي للصومال في مَقْدِيْشُو(١)، فقد أشار خلال وصفه لبحر الزنج(٢) إلى سماح البربر للعرب الوافدين بالاستيطان والإقامة الدائمة ببلادهم، قائلاً:".. **ولهم هناك مدن أجلّها مَقْدَشُو، وسكانها عرباء واستوطنوا تلك البلاد، وهم مسلمون، طوائف لا سلطان لهم لكل طائفة شيخ يأتمرون له، وهي على برّ البربر**"(٣). ثم أضاف في موضع آخر خلال حديثه عن مَقْدِيْشُو نفسها، إلى مدى الترابط الذي صار بين البربر وهذه العناصر العربية وتوافقهما على نظم الإمارة رغم كونهم غرباء، فقال:".. **هي مدينة في أول بلاد الزنج في جنوب اليمن في برّ البربر في وسط بلادهم....، وهي على ساحل البحر وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم إنما يدبّر أمورهم المتقدمون على اصطلاح** – اتفاق– **لهم**"(٤).

ويبدو إن هذه الروابط القوية ظلت قائمة بين العنصرين البربري والعربي في الساحل الغربي للصومال حتى منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). وهذا الذي

---

(١) مَقْدِيْشُو أو مَقْدَشُو: وتنطق بالصومالية (مُقْدِشُو)، هي عاصمة جمهورية الصومال وأكبر مدنه التي تقع على الساحل الغربي للمحيط الهندي، وقد تتضارب الآراء نحو تفسير اسم المدينة، فذهب البعض أنها تتكون من كلمتين: أحدها عربية والأخرى فارسية وهما (مقعد + شاه) تنطق معا بمعنى(مقعد الشيخ)، وهي إشارة إلى المكان الذي اتخذه الحاكم مقرًا لحكمه ومكان جلوسه. وبعضهم قال إنها بمعنى المكان الذي تتجمع فيه الأغنام للبيع. وعبر عنها الرَّحالة الغربيون بأسماء مختلفة مثل: (موجوديشيو Mougidshu) و (موجود سكوا Mougoudiskua) و(موجاديشوا Mougadishu) و (مقدشيكو Makdishiku) و(مقديكسو Magdiksu) أو (مجد كسو Magdiksu) وكل حسب نطقه (حمدي السيد سالم: الصومال قديمًا وحديثًا، ص٣٥٦–٣٥٧).

(٢) بحر الزنج: هو وصفٌ أطلقه الجغرافيُّون المسلمون على المنطقة الواقعة في الغرب من المحيط الهندي قبالة سواحل كينيا وتنزانيا.

(٣) معجم البلدان، ج١، ص٣٤٣.

(٤) معجم البلدان، ج٥، ص١٧٣.

أخبر به "القزويني" (ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) في عصره، فقال عن مَقْدِيْشُو:".. **مدينة في أول بلاد الزنج، في جنوبي اليمن على ساحل البحر. وأهلها عرباء لا سلطان لهم، ويدبر أمرهم المتقدمون على الاصطلاح**"(١). وكل هذه الدلائل توضح مدى انتشار الإسلام بين البربر في ذلك الوقت، على مستوى الصعيدين الداخلي والخارجي من بلادهم. فقد عمَّ الإسلام آنذاك غالبية أرجاء القرن الأفريقي، وقد أكد هذا "ابن سعيد المغربي" (ت:٦٨٥هـ/١٢٨٦م) في مصنفاته الجغرافية، فذكر أن الإسلام انتشر بين البربر فقال عنهم:" **وبربرا قاعدة البرابر...، وقد أسلم أكثرهم**"(٢). أما عن انتشاره في بلاد الحبشة، فكان في المناطق الساحلية منها، فقال:" **وهم نصارى وفيهم بالساحل مسلمون**"(٣).

والواضح أن مع مرور الزمن وازدياد الهجرات العربية الإسلامية من ناحية، وتزايد نشاط الدعاة في بلاد البربر وساحل الحبشة من ناحية أخرى، فهو عمل مشترك بين القادم الداعي وبين المستقر الموجهة إليه الدعوة، كان لابد أن تتطور مراكز الدعوة الإسلامية، فتحولت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة مشهورة على حد قول "بن سعيد"، امتدت من بلاد البربر في جنوب الساحل الشرقي للصومال، إلى سواحل ووسط الحبشة في شمالاً، فكان وصفه لمدن البربر هكذا:".. **من بلاد بربرا المشهورة على البحر مركه ...، وأهلها مسلمون وهي قاعدة الهاوية**(٤) **التي تنيف على خمسين قرية،... وفي شرقي ذلك مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع والمترددة الذكر على ألسن المسافرين وهي مقدشو**"(٥). أما وصفه عن مدن

(١) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ط (د.ت)، ص٦٢.
(٢) كتاب الجغرافيا، ص٨٢؛ وأيضًا ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، ص١٤.
(٣) الجغرافيا، ص٩٧؛ بسط الأرض، ص٣٠.
(٤) الهاوية: هي قبائل صومالية أتخذت من مَرْكة أو مَرْكا مركزًا لتجمعها، ومركة هي المدينة الساحلية التي تقع على الساحل الشرقي للصومال من المحيط الهندي على بعد حوالي ٩٢ كم جنوب العاصمة مقديشو، وقد ذكرها "الإدريسي" سابقًا في عصره والتي وصفها بأنها:" بلاد صغار كالقرى يقال لها الهاوية"(نزهة المشتاق، ج١، ص٤٨). ومن هذا الوصف ومقارنته بوصف "بن سعيد" يتضح لنا مدى التغير الذي طرأ عليها.
(٥) الجغرافيا، ص٨٢؛ بسط الأرض، ص١٤.

الحبشة الإسلامية فقال:".. **من مدن الحبشة المشهورة بلاد الزيلغ، وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردد إلى ساحل عدن وزبيد، وهي محل حطّ وإقلاع**"(١).

والواضح أن مَقْدِيْشُو في الجنوب وزيلع في الشمال صارت أرضهما أهم منفذين لتياري العروبة والاسلام في المنطقة، وقد استمرت هذه المدن الإسلامية في الشهرة والازدهار حتى باتت في بداية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، تُعرَّف بها معالم المنطقة في الأوساط الجغرافية لهذا العصر. فها هو شيخ الربوة "الدمشقي" (ت: ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، حين قدم وصفًا للساحل الشرقي للقرن الأفريقي، والذي عرف ببحر الزنج قال عنه: "**ويسمى بحر بربرا ومقدشو الحمرا،.. وهو معمور بالسودان المسلمين ومذهبهم زيدية**(٢) **وشافعية**"(٣). أما الساحل الشمالي منه فعرفه في جزئه من عدن قبالة اليمن بـ "**برّ زيلع**"، بينما قال عن جزئه من البحر الأحمر:" **بحر القلزوم يسمى بحر موسى وبحر الزيلع**"(٤).

وبذلك يمكن القول أن منذ نهايات القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قد تحقق ما كانت تخشاه الحبشة من اتحاد كافة العناصر المسلمة في المنطقة القرن الأفريقي، وأن سعيها في الحيلولة دون ذلك قد باء بالفشل؛ فقد تأصل الإسلام في المنطقة وتغلغل في نفوس عناصرها المختلفة من عرب وبربر وأحباش، وترسخ مبدأ أخوة الدين والعقيدة لا الموطن والجنس، فالانتماء في دولة الإسلام للدين لا لأعراق، فقبل ذلك الزمن بدأت تتشكل دولة الإسلام في المنطقة بعدما بدأت أول أمرها بإمارات ضعيفة متفرقة. ويمكن معرفة دور الإسلام في ذلك الزمن في هذه المنطقة، من خلال تلاقي عناصرها وترابطهم بإقامة تحالف

---

(١) الجغرافيا، ص٩٩؛ بسط الأرض، ص٣٢.

(٢) الزيدية: هي فرقة دينية من أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية وأكثرها اعتدالا، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنه، وسمي أتباعه بالزيدية لخروجهم معه في ثورته على الأمويين زمن هشام بن عبد الملك على أثر الخلاف بين الأمويين والعلويين، وقد قام مذهبهم بالأصل على فكرة الخروج على الحاكم الظالم.. ولتفاصيل أكثر انظر(محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، القاهرة، دار الفكر العربي، ط (د.ت)، ص٤٠-٤٤).

(٣) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، ص١٦٢.

(٤) الدمشقي: نخبة الدهر، ص١٩، ص١٦٥.

إسلامي عُرف باسم (بلاد الزيلع أو الزيالعة)، تحت زعامة إمارة (أوفات)[١] أقوى الإمارات الإسلامية آنذاك، بعدما استطاعت ضم جميع الإمارات الإسلامية في بلاد الحبشة والصومال بما فيها إمارة مَقْدِيْشُو، حتى أصبحت مساحتها تفوق أراض مملكة الحبشة المسيحية التي قامت في جزء كبير من أرضها[٢].

ومن خلال الشواهد السابقة يتبين لنا أن كامل سواحل القرن الأفريقي بما فيها من بلاد الصومال، باتت تُعرف منذ بدايات القرن الثامن الهجري(الرابع عشر الميلادي) باسم "بلاد الزيلع أو الزيالعة". ويؤكد ذلك جغرافي هذا العصر كـ"ابن الوردي" (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، الذي عندما قدم وصفًا للبحر الأحمر في كتابه، ذكر أن بلاد البربر تجاور الحبشة في الجنوب منه[٣]. في حين عندما رسم خريطته للعالم في بداية كتابه نفسه، وضع اسم الزيلع بدلاً من البربر بين الحبشة والزنج؛ والواضح أنه قام بذلك؛ لأن أسماء الأماكن في الخرائط تُعيَّن بوضع الاسم الأعم والأشهر. ولو افترضنا جدلاً أنه قصد بزيلع (الميناء) فلمَّ لم يُعيَّن ما هو أهم منها وأشهر في المنطقة أو غيرها بخريطته.

وهذا القول أيضًا يؤكده كذلك "ابن بطوطة"(ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م) خلال وصف رحلته التي قام بها للمنطقة في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، ولكن بعبارة صريحة وأكثر وضوحًا قال

---

(١) أوفات أو وفات أو جبرة: هي إمارة إسلامية تأسست على يد أبناء أسرة تاجر العربي كان يسمى"عمر" ولُقب بـ" وَلَشْمَع"، والذي ينتمي إلى قريش من ولد عبدالدار أو من بني هاشم، من ولد عقيل بن أبي طالب، حيث ولاه "الحطى" ملك الحبشة أعمال مدينة أوفات، والتي تقع في الغرب من زيلع، في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ومنذ تأسيسها أخذت على عاتقها تحرير أوفات من التبعية الحبشية المسيحية، والاستقلال بالأمر، ونشر الدين الإسلامي، حتى استطاعت تكوين تحالف إسلامي كبير عرف باسم "بلاد الزيلع، والتي امتد سلطانها على أراضي شاسعة في منطقة القرن الإفريقي، والتي تتمثل الآن فيما يعرف بجيبوتي، والجزء الجنوبي من إقليم إريتريان وسهول الدناكل، وتمتد جنوبًا لتضم الجزء الشرقي من حوض نهر أواش الأثيوبي، وكذلك الهضبة الصومالية بما فيها من منطقة هرر والأوجادين، وتمتد شرقًا لتشمل جزءًا كبيرًا مما يعرف الآن بالصومال الشمالي بما فيه من مينائي زيلع وبربرة (رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في أفريقيا الشرقية، ص٨٩).

(٢)Trimingham: Islam in Ethiopia, Oxford, 1952,p69.

(٣) خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص٩١.

فيها:" **ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين. أولها زيلع، وآخرها مقدشو**"(١).

أما كتابات "أبو الفداء" الجغرافية (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م) لم نتطرق لها، رغم أنه قدم وصفًا لبلاد البربر والزيلع والحبشة وحقق مساحتها(٢)؛ إلا إنه لم يضيف معلومات جديدة تمثل وصفًا لواقع تلك البلاد في القرن الثامن الهجري(الرابع عشر الميلادي)، بالرغم من أنه معاصرًا "للدمشقي" وسابقًا "لابن الوردي" و "ابن بطوطة"، فقد اعتمد في وصفه وتحقيق أمر المساحة على الاقتباس من سابقيه وخصوصا جغرافية "ابن سعيد المغربي"، وهو لم يخفِ ذلك.

ولكن تأكيدًا لاختفاء اسم البربر عن بلاد الصومال في نهايات القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بعدما صارت جزءًا من بلاد الزيلع، فها هو أيضًا "ابن الشِّحْنة" (ت:٨١٥هـ/١٤١٢م) من جغرافي هذا العصر، حين قدم وصفًا للسودان قال:" .. **فمنهم الحبوش، وبلادهم تقابل الحجاز بينهما البحر، وتجاورهم في الجنوب الزيلع، والغالب عليهم دين الإسلام**"(٣). ومن التمعن في هذا القول يتأكد أن البلاد المقابلة لليمن من أرض السودان في القرن الإفريقي، صارت في عصره تُعرف بالزيلع.

وبوصولنا إلى سر اختفاء اسم البربر على المناطق الصومالية، ليحل محله اسم الزيلع عليها، ثم تكاملها ثقافيًّا واجتماعيًّا حتى شاع عنها اسم بلاد الصومال في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، نكون قد وصلنا أيضا إلى نهاية هذا البحث؛ والذي أردت فيه تسليط الضوء على كتابات الجغرافيين للمنطقة الصومالية من مختلف الكتب الجغرافية في الفترة من القرن الثالث إلى الثامن الهجري(التاسع إلى الرابع عشر الميلادي)؛ لعلي أكون قد ساهمت في كشف بعض جوانب تاريخ أرضنا الصومالية المدفون بين الكتب.

---

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١، ص٢٦١.

(٢) تقويم البلدان، ص١٥٢:١٦٣؛ وأيضًا أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، عام١٣٢٥هـ، ج١، ص٩٥.

(٣) ابن الشِّحْنة: روضة المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد محمد مهني، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، عام١٩٩٧م، ص٦٣.

الخاتمـــــــة:

إذن نخرج بخلاصة مهمة، وهي أن اسم بلاد بربري أو بربرا أو بربرة أو بربر الذي شاع عند وصف البلاد الصومالية منذ أقدم الحضارات عبر عصور، يقصد به العناصر التي كانت تقيم بأرض الصومال، والذي لم يبق منه سوى اسم مدينة بربرة الساحلية شمال الصومال؛ وكأنها أبت إلا إن تذكرنا بزمان كان اسم البربر اسمًا شائعا على هذه البلاد في إحدى حقب التاريخ.

ومن ذلك نؤكد أن اسم البربر الذي اشتهرت به الأراضي الصومالية، وقد شاع تداوله في فترة من الزمن امتدت على أقل تقدير منذ القرن الأول الميلادي، حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ليحل بعده اسم بلاد الزيلع أو الزيالعة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، إلى ظهور الاسم الحالي (الصومال) في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

وقد أبرزت مصنفات المؤرخين والجغرافيين والرَّحالة في العصر الإسلامي، في الفترة من القرن الثالث إلى الثامن الهجري(التاسع إلى الرابع عشر الميلادي)، الأثر الواضح للإسلام في تشكل المجتمع الإسلامي بالصومال بين عناصره المختلفة من بربر وعرب، ووقوفهم ضد الاضطهاد الحبشي المسيحي والعدوان الأوربي، وتمسكهم في أحلك الظروف بعقيدتهم وثقافتهم الإسلامية العربية، حتى أعقب ذلك اسم الصومال يتردد كثيرًا لاسم دولة عربية إسلامية، كانت أرضها شاهدة في العصور الإسلامية على حضارة المسلمين في ساحل شرق أفريقيا عامة والقرن الإفريقي خاصة.

الملاحـــق:

ملحق (١)

بلاد بربرة في خريطة العالم بأقدم مخطوطة لكتاب "الإدريسي" (نزهة المشتاق)[١].

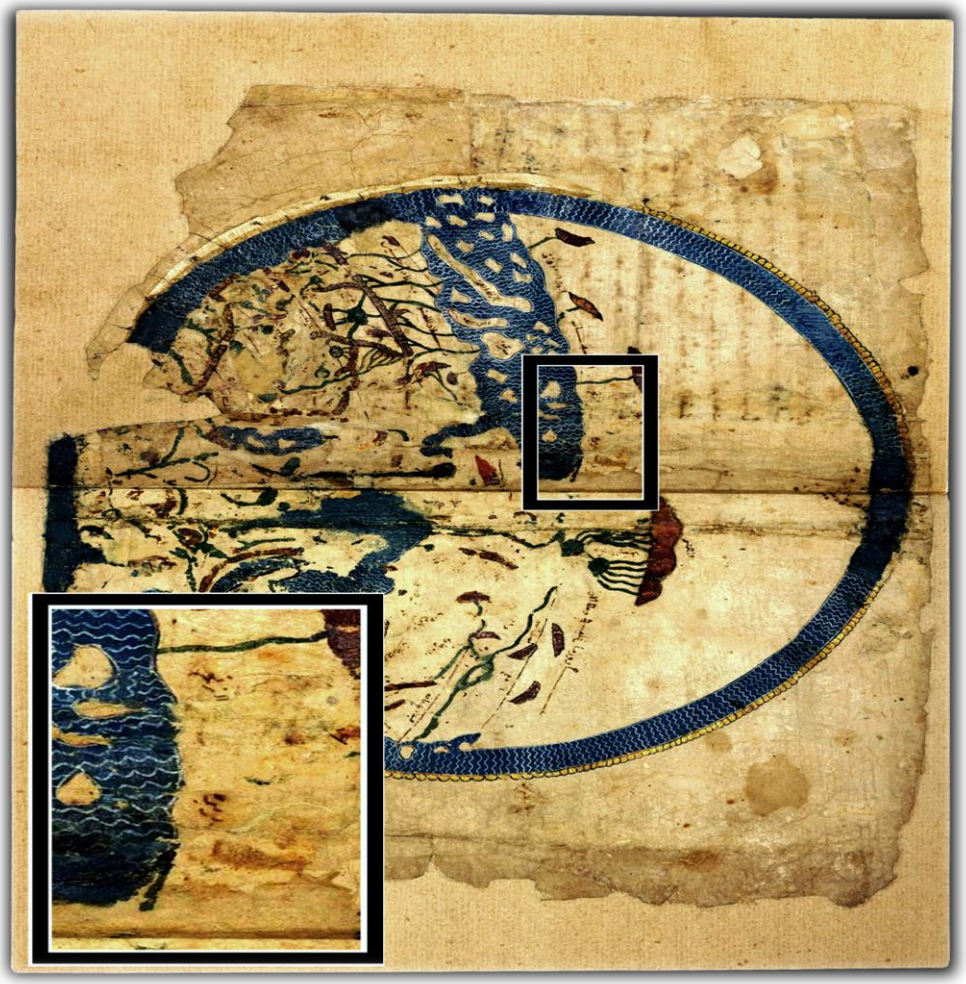

(١) مخطوطة محفوظة الآن بمكتبة فرنسا الوطنية، تحت رقم: (MS Arabe 2221)، ورقة: (١٥، ١٦)، المكتبة الرقمية العالمية، موقع:

https://www.wdl.org/ar/item/18418/view/1/14

ملحق (٢)

بلاد بربرة تظهر بوضوح في مخطوطة أخرى لخريطة العالم نُسخت من خريطة كتاب "الإدريسي(نزهة المشتاق)، في القرن التاسع الهجري بالقاهرة[١].

(١) مخطوطة محفوظة بمكتبة بودليايان بأكسفورد، برقم:(Mss. Pococke 375 fol. 3v–4)
ينشرها موقع: https://sindominio.net/labiblio/varios/IdrisiMap.jpg

ملحق (٣)

بلاد الزيلع تحل بدلا من بلاد البربر في خريطة العالم من مخطوطة كتاب "ابن الوردي"(خريدة العجائب)[١].

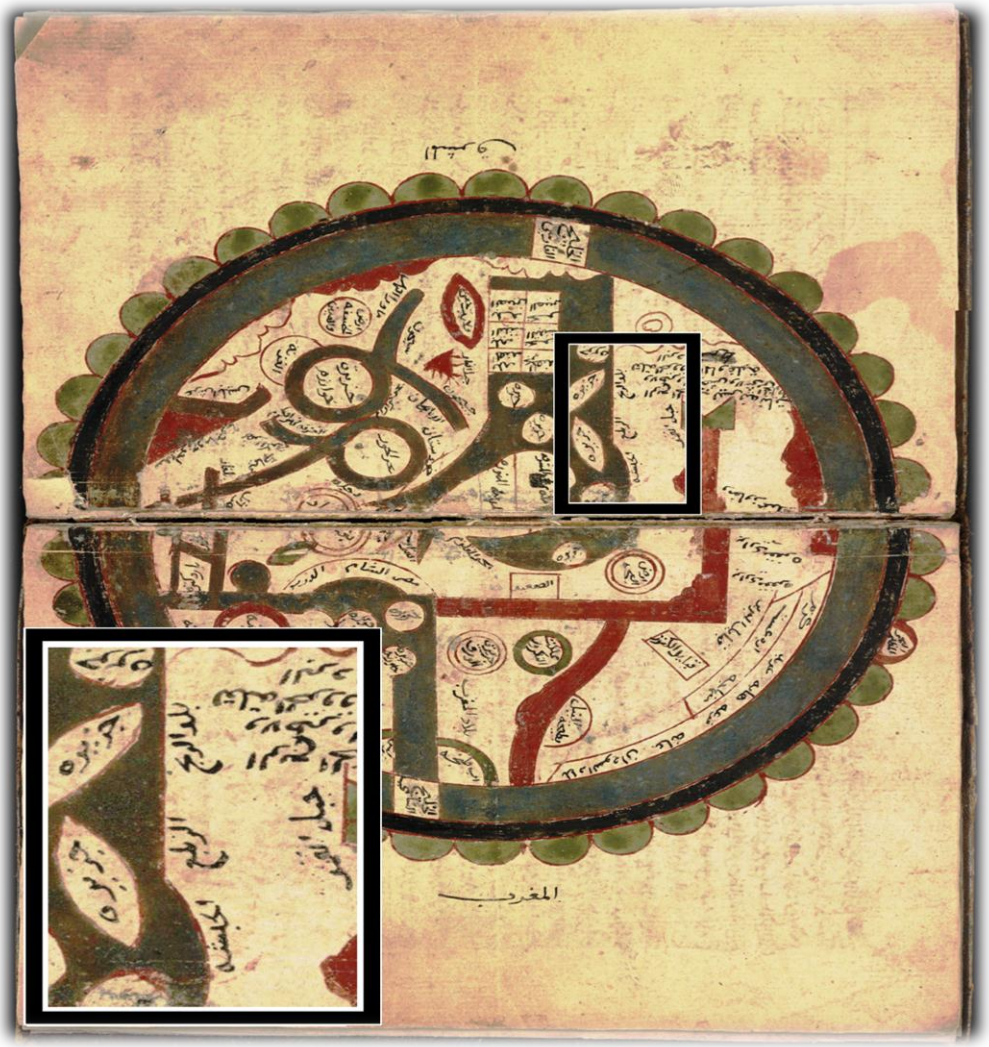

(١) مخطوطة محفوظة الآن بمكتبة الكونغرس الأميركية ، تحت رقم: (near east: sm 3)، ورقة (٢٦)، المكتبة الرقمية العالمية، موقع: https://dl.wdl.org/11218_1_26.png

ملحق (٤)

خريطة توضح بلاد البربر في العصر الإسلامي في الفترة من القرن الثالث إلى السادس الهجري (إعداد الباحث).

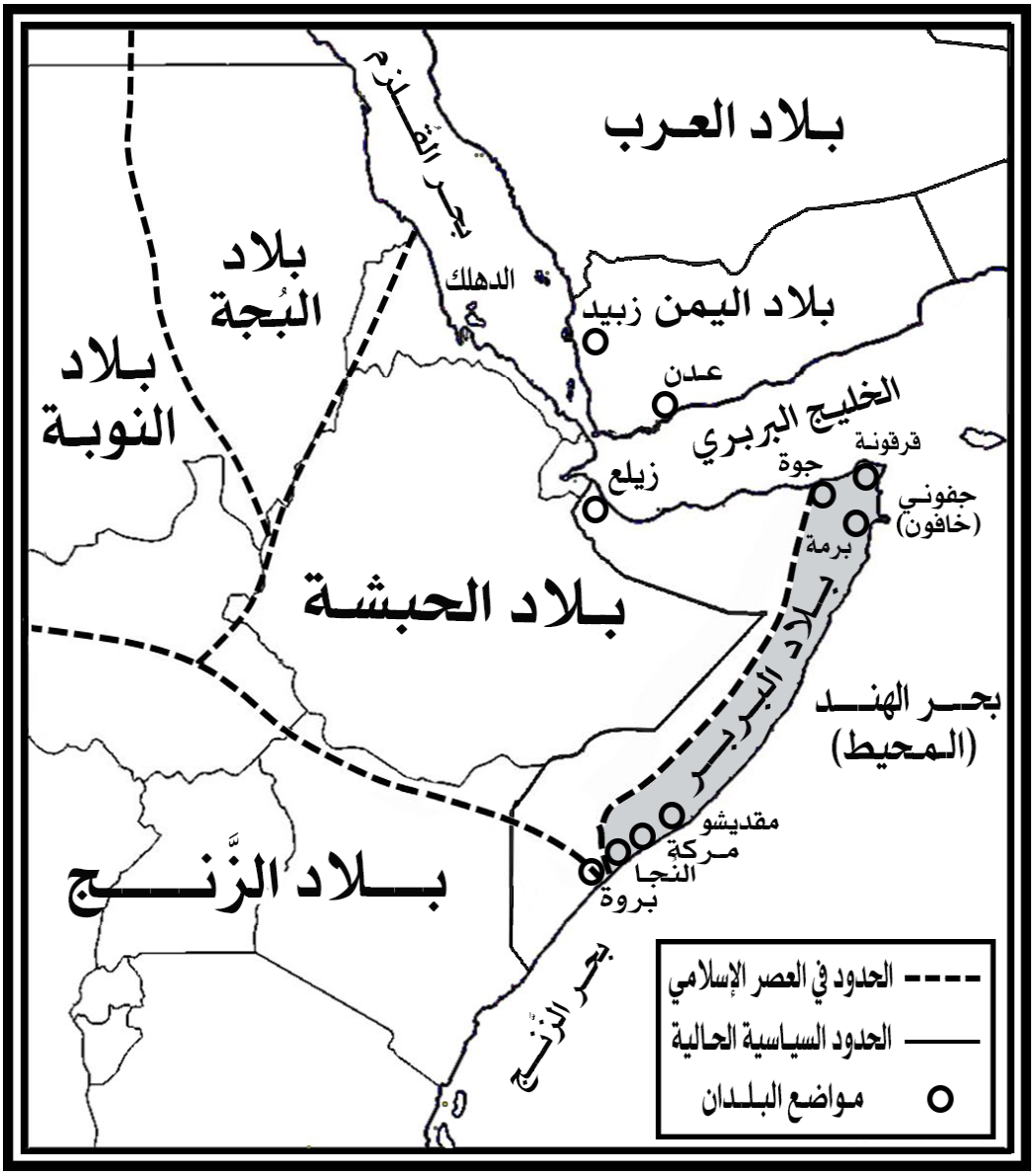

ملحق (٥)

خريطة توضح بلاد الزيلع في العصر الإسلامي في القرنين السابع والثامن الهجريين (إعداد الباحث).